الفصل الأول

فن الخمر

الفصل الأول
فن الخمر

صورة الخمر في العصرين الجاهلي والإسلامي:

بالرغم من أن شعر الخمر قديم في شعرنا العربي إلاّ أن نقادنا الأقدمين لم يفردوا له باباً أو فناً مستقلاً بل غلب عليهم الحاقة ببعض الفنون الأخرى[1].

أما عن صورة الخمر قبل أبي نواس فإن العرب في جاهليتهم عرفوا الخمر كما عرفتها الأمم القديمة من حولهم. فاليونان جعلوا للخمر إلهاً هو باخوس[2] في حين كان العرب يشربون الخمر على ما يذكر ابن قتيبة[3] لتزيدهم جرأة وشجاعة. وإلى هذا يشير حسان بن ثابت:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأُسداً ما ينهنهها اللقاء[4]

ومن شغفهم بالخمر وضعوا لها نحواً من مئة اسم[5] كما تعددت مصادر الخمر عندهم[6] وقد ساعد وجود بعض الواحات الخصيبة كالطائف ويثرب على انتشار الخمر في بلاد العرب[7] كما كان التجار من نصارى ويهود يرحلون بخمورهم إلى الأعراب في بواديهم[8] وكذلك كان العرب يرحلون إلى العراق حيث قامت إمارة الحيرة المشهورة بخمورها وأديرتها ومواخيرها[9] وإلى بلاد الشام الغنية ببساتينها وكرومها حيث قامت إمارة الغساسنة وعاصمتها جلق، وقد سمى لنا «ابن فضل الله العمري» جملة من أديرة وحانات الشام[10].

وهكذا ندر وجود الشاعر الجاهلي الذي لم يقل في الخمر شعراً فهذا المهلهل الذي يعتبر من

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٢/٣١.

(٢) معجم الأساطير (ديونيسوس).

(٣) الأشربة لابن قتيبة ص٣٨.

(٤) ديوان المعاني ١/٣١٤.

(٥) حلبة الكميت ص٧.

(٦) تطور الخمريات في الشعر العربي ص٦٦.

(٧) المصدر السابق نفسه ص٧٩ و٨٨.

(٨) العقد الفريد ٦/٣٤٦.

(٩) تطور الخمريات في الشعر العربي ص٧٣.

(١٠) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص٣٣١ و٣١٦.

أقدم شعراء الجاهلية باعتباره أحد شعراء حرب البسوس (٤٩٤-٥٣٤)[١] يحرم الخمر على نفسه كإحدى اللذات، حتى يأخذ بثأره من قاتل أخيه كليب. ومثله امرؤ القيس الكندي، أحد شعراء النصف الأول من القرن السادس الميلادي يحل لنفسه الخمر بعد أن أدرك بثأره من بني أسد:

حَلَّتْ لي الـخـمـر وكـنت امـرءاً عن شربهـا في شغـلِ شاغـل[٢]

أما أوس بن حجر فقد جعل الخمر في درجة واحدة مع أعلى القيم الاجتماعية والمآثر الأخلاقية من جود ونجدة وشجاعة وذلك في رثائه فضالة بن كلدة. حيث يقول[٣]:

ليبـكـك الـشَّـرْبُ والـمُـدامـةُ والـفـتـيانُ طُراً وطـامـعٌ طَمِـعَـا
وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَواشِـرُهَـا تُصْمِتُ بالـمـاءِ تَوْلَبـاً جَدَعَـا
والـحيُّ إذ حاذروا الصبـاحَ وقَـدْ خَافُـوا مُغـيراً وسـائـراً تَلِعَـا

ونمضي مع الجاهليين فإذا بهم يزخرفون شعرهم الخمري وينمقونه بشتى التصاوير والتشابيه الطريفة، فهذا علقمة الفحل، وهو معاصر لامرىء القيس يشبه كأس الخمر بالظبي في طول عنقه، وبأنه موشى بالخطوط وهو مصنوع من فضة، مكسو بالريحان ويضوع منه الطيب، وعليه مصفاة من سبائب الكتان:

كأنّ إبـريقَـهـم ظبيٌ عَلَى شَرَفٍ مفـدمٌ بِسِـبـأ الـكِـتّـانِ ملثـومُ[٤]
أبـيض أبـرزه للضـح راقـبـه مُقَـلَّدٌ قُضُـبَ الـرَّيْحـانِ، مفغُـومُ

وهذا أبو ذؤيب الهذلي يشبه صفاء الخمر بمثل صفاء عين الديك ولونها بالدم:

ومـا ان فَضْـلةٌ من اذْرِعَـاتٍ كعينِ الـدّيكِ احْصنَهـا الصُّـروحُ[٥]
مصـفّـقـةٌ مُصَـفّـاةُ عُقَـارٌ شَآمِـيَةٌ إذَا جُلِيَتْ مَرُوحُ

ومثله امرؤ القيس[٦] أيضاً.

كذلك عنى الجاهليون بآنية الخمر فكأس عنترة زجاجة صفراء مخططة إلى جنبها إبريق من فضة عليه مصفاة:

---

(١) تاريخ العرب العام، لسيد يو، ص٥٢.
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٦٤.
(٣) ديوان أوس بن حجر ص٥٥ ط. صادر.
(٤) الموشح للمرزباني ص٣٦٦. أشعار الستة الجاهليين ص١٥٦.
(٥) ديوان الهذليين ١/٦٩ ط. دار الكتب.
(٦) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص٩٥.

ولقد شَرِبْتُ مِن المُدَامة بعدما ركد الهواجر بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ قُرِنَتْ بأزهرَ في الشِّمالِ مفَدَّمِ

وأما المنخل اليشكري فقد كان يشرب بالكأس الكبير والصغير:

ولقد شَرِبْتُ من المُدَامةِ بالصغير وبالكبيرِ[1]

ولعل لبيداً كما يقول «أبو هلال العسكري» أوّل مَنْ شبّه إبريق الخمر بالأوز في طوله من غير أن يذكر الخمر:

تُضَمَّنُ بيْضاً كالأوزِّ ظروفُها إذا تأقُوا أعناقَها والحَواصِلاَ[2]

وأيضاً لم يهمل الجاهليون أفاعيل الخمر في نفوس شاربيها، فهي ترد الشيخ إلى غلام إذا شرب منها خمساً كما يقول المنخل اليشكري:

كأس إذا ما الشيخ والى بها خمساً تردَّى برداءِ الغُلاَم

وهي تحوّل الشحيح إلى جواد كريم وتنسيه همومه كما يقول عمرو بن كلثوم:

تجورُ بذي اللُّبانةِ عن هوَاهُ إذا ما ذاقَها حَتَّى يَلينَا
ترَى اللّحِزَ الشحيحَ إذا أُمِرَّتْ عليه لِمَالِهِ فيها مهينَا

هذا، وتعتبر خمرية عدي بن زيد التي يستهلها بقوله:

بكَر العاذلون في وضَح الصُّـ ـبح يقُولُون لِي ألاَ تستفيقُ[3]

مع خمريات الأعشى نموذجاً لمن جاء بعدهما وأنشأوا قصائد في الخمر[4] فبين الشاعرين تشابه في الأسلوب كما يقول نلينو[5] وفي هذه الخمرية يقول عدي:

ثُمَّ نادُوا على الصَّبُوح فجاءت قَيْنَةٌ في يَمينِهَا إبْريقُ

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٦٥.

(٢) ديوان المعاني ١/٣١١.

(٣) ديوان عُدي بن زيد ص٧٦.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية «عدي بن زيد».

(٥) تاريخ الاداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص٧٤.

قَدَّمْتُهُ علَى سُلافٍ كعينِ الدِّ ... يكِ صَفَّى سُلافَها الرَّاووقُ[1]
مُزّةً قبل مزجها فإذا مَا ... مُزجتْ لذَّ طَعْمُهَا من يذوقُ
وطفا فوقَها فقاقيعُ كالـ ... ـياقوتِ حُمْرٌ يَزِينُها التَّصْفِيقُ

في هذه الأبيات رقة حضارية واضحة مع المحافظة على الرصانة البدوية هذا إلى اختراع الشاعر ما يحدثه مزج الخمر بالماء من فقاقيع تطفو على سطح الكأس. وهو معنى أكثر من ترداده العباسيون[2]:

على أن أهم ظاهرة فنية في الشعر الخمري الجاهلي تدعو إلى الالتفات هي القصة الخمرية أو وصف المجلس الخمري ومن صوره قبل الأعشى قصيدة للأسود بن يعفر، وهي من مختارات المفضل الضبي[3]، ضمنها وصفاً لقصور آل لخم وللنعيم الذي كان يتمتع به الأسود في ظلال المناذرة وغدوه على بائع الخمر وبذله المال في سبيل لذته مع وصفه لساقي الخمر الغلام المقرط الاذن الأغن الصوت المطلي الأنامل باللون الأحمر وقد علق لؤلؤتين في أذنيه هذا إلى وصفه للقيان البيض كأنهن البدور بنظراتهن النفاذة وأصواتهن الخفيضة. . . !

أما الأعشى فشاعر الخمر الأول في العصر الجاهلي غير منازع وعند المحدثين واضع جرثومة الفن الخمري في الشعر العربي[4] وعند الأقدمين له فضل السبق في هذا الفن[5] وهو أشعر الناس إذا طرب[6] أي إذا شرب الخمر ووصفها، أو إذا سَكِرْ[7] وقد غطت شهرته بالخمر على روائع فنونه الأخرى فقد كانت فتنته بالخمر عظيمة حتى أربى ما قاله فيها على جميع ما قاله الجاهليون[8] ومن اختراعاته أنه أدخل الوصف الخمري في المنهج الأدبي لمدائحه وقد عدّ النقاد المحدثون وصفه لمجالس الخمر أشبه بوصف شعراء العصر العباسي زمن هارون الرشيد[9] وهكذا وجدنا خمرياته مستغرقة في لون الخمر وصفائها ومزاجها ودنانها وزقاقها وسقائها والخمارين مع الإشارة أيضاً إلى القيان والمغنين والندمان وما يعتري شاربها من نشوة وما يسري في أعضائه من فتور، على أن أهم

(١) الراووق: المصفاة.

(٢) تطور الخمريات في الشعر العربي ص٧٦.

(٣) المفضليات ٤٤: ٢١٥.

(٤) الروائع لافرام البستاني رقم ٣١ ص٣٢.

(٥) الشعر والشعراء ص١٨، ديوان المعاني ١/٣١٩-٣٢٨ - ٣٢٩.

(٦) الأغاني ٩/١٠٨.

(٧) تطور الخمريات في الشعر العربي ص٥٦.

(٨) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٩) تاريخ الآداب العربية لنلينو ص٧١.

شيء جعل الأعشى يقترب من ذوق العباسيين هو اقتران خمرياته بالمجون وتفرده بالقصة الخمرية، هذا من غير أن تستقل الخمرية عنده بقصيدة مفردة مثله في ذلك مثل معظم الجاهليين إلاّ أن القسم الخاص بالخمر من مطولاته يكاد يستوفي كل شروط الخمرية المستقلة كما يتضح لنا ذلك في مقدمة مدحته لأحد أذواء اليمن هوسلامة ذوفائش [1] حيث يسرد الأعشى مغامرة خمرية تبدأ بالغدو على حانة بالخباء وتنتهي بالرحيل بعد أن أصاب وصاحبه من الخمر ما أفقدهما اتزانهما ووقارهما، هذا إلى وصف الخمار الأعجمي أزرق العينين الحاذق بصنعته الحريص على خمره المغالي في ثمنها الكثير المساومة. وأما الخمر فقد تخيّر لها عنباً مِن بكار القطاف وقد أودعها خابية ضخمة سوداء مطلية بالقار فمكثت هناك مدة حتى تناقصت، فبدت كأنها حوصلة الرأل فتنقلب كتمتها إلى حمرة... وأخيراً ينهض الأعشى وصاحبه، وقد استخفتهما النشوة حتى خرجا عن أطوارهما، إلى مطاياهما التي باتت على باب الخباء بأكوارها وألبادها.

وفي خمريات الأعشى جانب لا نلمسه في خمريات غيره من الجاهليين هو هذا الحب للخمر إلى درجة توشك أن تكون تقديساً[2] بل أن لهجة التقديس تتردد في خمرياته وهي لا شك بقايا طقوس دينية لبلاد ما بين الرافدين MESOPOTAMIA [3] من ذلك قوله يصف المراسيم التي تتلى عند تدفق الخمر من الدن بعد البزل[4]:

إذا بُزِلَتْ من دَنِّها فَاحَ ريحُهَا وقد أُخْرِجَتْ منن أسْودِ الجَوفِ أدْهمَا
لها حَارسٌ ما يبرحُ الدّهرَ بيتَهَا إذَا ذُبِحَتْ صَلّى عليها وزَمْزَمَا

يشبه الأعشى ثقب سداد الدن بعملية الذبح في المعابد وما يصاحبها من طقوس دينية. والحقيقة أن الأعشى يكاد يكون قد ألم بجميع أحوال الخمر وصفاتها من لونها ومزاجها ووصف مجالسها وقيانها وندمائها وسقاتها وشرابها وخماريها ونشوتها هذا إلى أسماء البلاد التي كان يعاقر فيها الخمر أو ترد منها، بل لقد وجدناه يملأ إحدى قصائده بالألفاظ الفارسية كدليل على المامه ببلاد فارس أو الثقافة الفارسية حيث كان كثير التردد على الحيرة ملتقى الثقافة الفارسية، بالثقافة العربية[5]، كما يذكر نسوة غير عربيات.

واضح إذن من هذا العرض لخمريات الجاهليين فضل السبق للأعشى على مَنْ جاء بعده من

---

(١) ديوان الأعشى ص٦٩.
(٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيق ص٣٥٥.
(٣) الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ص٣٧٧.
(٤) ديوان الأعشى ص٢٩٣.
(٥) حياة الشعر في الكوفة ص٢٣٢.

شعراء الخمر في كثير من معانيهم وصورهم[1] . . . !

. . . .

فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي وجدنا العرب يتأنقون في المطاعم والمشارب والملابس والمباني والفرش والآنية وسائر الماعون والحُرْثيّ[2] والولائم ولباس الأعراس مما ساعد على استفحال عادة شرب الخمر وكان الثراء العريض يعم فئات واسعة من العرب بعد أن ملكوا فارس والروم[3] فازدحمت الحواضر العربية بالرقيق والجواري مما أدى إلى ظهور الغناء والمغنين وخضوع العرب لمختلف المؤثرات الأجنبية من فارسية ورومانية وسريانية ويونانية. كذلك أدى التسامح الإسلامي مع أهل الذمة ومعاملة المجوس معاملة أهل الذمة[4] إلى الإبقاء على أديرتهم وكنائسهم وبيعهم وحاناتهم وتجارتهم ومنها تجارة الخمور التي كانت رائجة حتى كانت بعض الجواري والقيان يزاولنها[5] وهكذا أخذ الناس من مختلف الطبقات يعاقرون الخمر ومنهم الشعراء وفي كل إقليم نجد منهم الكثيرين على أن الذي يهمنا أن شعر الخمر الإسلامي كان يتردد بين السير على سنن الجاهليين وبين النزوع إلى الجدة والطرافة، لكن التقليد كانت له الغلبة، فقد ظلت الخمر حتى أواخر العصر الأموي ترد إما في مقدمات المدائح أو في ثنايا القصائد الأخرى بين جملة من الموضوعات تشتمل عليها القصيدة، هذا إلى أن معظم الشعراء لم تقم شهرتهم على شعر الخمر وإنما على الفنون الأخرى من مديح وهجاء ورثاء وغيرها، كما كان للخصومة السياسية بين مختلف الأحزاب والخصومة القبلية بين العدنانيين والقحطانيين أثرهما الكبير في تحديد الخطوط العامة لمسيرة الشعر العربي في هذا العصر، مما أدى إلى تأخر استقلال الخمر بقصيدة مفردة إلى أواخر العصر وإلى تأخر القصة الخمرية بل ضمورها في الخمر الإسلامية[6] وهكذا ظل الأخطل شاعر الخمر الأول في العصر الأموي ـ لإدمانه على شربها ولأنه كان يرى فيها مصدر إلهامه الشعري[7] ـ ينهج على منوال الأعشى مع قلة الابتكار والإبداع، من اصطناعه الخمر في مقدمات مدائحه. ولعله دل العباسيين ومعه الأعشى على هذا الصنيع هذا إلى اختفاء لهجة التحدي من خمرياته

---

(١) معجم الشعراء ص٤٥٩، وديوان المعاني ١/٣٢٨، والشعر والشعراء ص١٨، وسرقات أبي نواس ص٦ و ص٩٢-٩٣.

(٢) الحرثي: أثاث البيت.

(٣) مقدمة ابن خلدون ١/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) كتاب الخراج ص٥٠.

(٥) الأغاني ١١/٢٥٤ ط. الثقافة.

(٦) تطور الخمريات في الشعر العربي لجميل سعيد ص١٧٢-١٧٣.

(٧) تاريخ الآداب العربية لنلينو ص١٣٥، وتطور الخمريات في الشعر العربي ص١٥٥.

حين لم يستطع المداحون المسلمون أن يصطنعوا الخمر في أماديحهم بالرغم من أنهم وجدوا في التسامح الديني وفي التفتح على الحضارات والثقافات الجديدة ما شجعهم على الإدمان على شرب الخمر ساخرين من كل وازع مزرين في أحيان غير قليلة بالقيم الدينية غير عابئين[1] بسلطان. وهكذا وجدنا الأخطل، وهو النصراني الذي لا يجد حرجاً في معاقرة الخمر يثير جدلاً بين الجاهلية التي كان يعاقر فيها الناس الخمر معاقرة طبيعية دون عقيدة تفرض عقوبة، أو تورث مأثمة وبين الإسلام بمحاذيره ونواهيه، فقد سكر الأخطل حتى مات على دين الجاهلية مدة ثلاثة أيام، حتى إذا صحا مع شربه استعادوا حياة من غير حشر ولا قيامة، وإنما حياة تناولتهم فيها السنة العاذلين واللائمين[2]:

شَرِبْنا، فمُتنا ميتةً جاهليةً ... مضى أهْلُها، لم يعرفُوا ما مُحَمدُ
ثلاثةَ أيّام، فلما تَنبَّهَتْ ... حُشَاشَاتُ أنفاسٍ أتتْنا، تَرَدَّدُ
حيينا حياة، لم تكن من قيامة ... علينا، ولا حَشْرٍ، لنَابهِ مَوْعِدُ
حَياةَ مِرَاضٍ، حولهم بعْدَما صحَوا ... من الناس شَتّى: عاذِلون، وعُوّدُ

والأخطل شديد الشغف بالخمر إلى درجة الهيام لذلك غصت خمرياته بأوصافه لزقاق الخمر المملوءة المرتفعة القوائم مصوراً إياها برجال من السودان، وبدبيب الخمر في العِظام، وبمزجها بالماء ونسبتها إلى مواطنها الأولى ولعل قوله الذي ينم به عن الهيام بالخمر:

رَبَتْ، وربَا في حِجْرِها ابنُ مدينةٍ ... يظلُّ علَى مِسْحَاتِه يتَركَّلُ[3]

لا يخلو من طرافة وجدة ومثله قوله أيضاً:

فصبوا عُقَاراً في إناءٍ، كأنَّهَا ... ـ إذا لمحوها ـ جُذوةٌ ـ تَتَأكّلُ

فإنه غاية في الجدة والابتكار حين شبه الخمر وهي تصب في إنائها بجذوة النار الملتهبة فهو معنى لم يسبق إليه ولعل أبا نواس وغير أبي نواس أعادوه في خمرياتهم.

أما غير الأخطل من شعراء الخمر فهم كثير في هذا العصر. منهم حارثة بن بدر الغداني الذي لم يكن يكترث لعائب على شرب الخمر وحده أو مع نديم مسعد مع تهكم لاذع بالحج[4]،

(١) الأغاني ٨/٣٩٤ ط. الدار، و١١/ ٢٤١-٢٥٢ ط. الثقافة.

(٢) شعر الأخطل ٢/٧٣٢.

(٣) ابن مدينة: العالم بالقيام عليها، تركله: همزه برجل المسحاة.

(٤) الأغاني: ٨/٣٩٤ ط. الدار.

والاقيشر الشاعر الكوفي الماجن الذي يستنكر مساءلة الشرطي له عن شربه الخمر وهو الذي يدفع ثمنها:

إنـمـا نشـرب من أمـوالـنـا فسلَوا الشـرطيّ ما هذا الغضَبْ[1]

ويذكـرنا الاقيشر في سخريته اللاذعة من أهل التقى ومن الدين نفسه حين يصف نديمه بأنه لم يستطع القيام من شدة سكره فيقرن صلاة الظهر بصلاة العصر، بأبي نواس، يقول الاقيشر:

قلت قُمْ صَلِّ فصـلَّى قاعَـداً تتـغـشّـاهُ سمـاديرُ الـسَّـكَـرْ[2]
قرنَ الـظهـرَ مع العصـر كَمَـا تقـرنُ الحِقّـةُ بالحِقّ الـذكـرْ[3]
ترك الـفـجـرَ فمـا يقـرَؤُهَـا وقـرا الـكـوثَـر من بَيْنِ السُّـورْ

على أن أهم شعراء الخمر في العصر الأموي همـا الوليد بن يزيد وأبو الهندي.

أما الوليد بن يزيد فبتأثير حياته الماجنة وتأثره بكل من مدرسة الحجاز ومدرسة الكوفة الشعريتين استطاع أن يدفع الخمرية إلى الأمام خطوات بعيدة أولها الاستقلال بها في قصيدة مفردة. وتحت تأثير الغناء الذي كان يتقنه اتقاناً بعيداً[4] تطور شعره ومنه الخمر إلى أن أصبح في مجمله مقطوعات قصيرة في بحور الشعر الخفيفة[5]، وهكذا كانت خمرياته ومعها غزلياته ينظمها إما بوحي الغناء أو من أجل الغناء تنفيساً عمّا كان يجد من ظلم عمه أو سلواناً عن حبه العاثر قبل موت حبيبته وبعده. وقد استغرق في خمرياته رغم قصرها في معظم صفات الخمر من لونها ورقتها وشعاعها وتطاير حببها عند المزج وكذلك رائحتها وفعلها في أعضاء جسم الإنسان:

وصفـراءَ في الكـأسِ كالـزّعفـرانِ سبـاهـا التُّجيبيُّ من عَسْقَـلانِ[6]
تُريكَ الـقـذاةَ وعـرْضُ الإنـا ءِ سِتـرٌ لهـادُون لمس الـبـنَـانِ
لهـا حَـبـبٌ كلّمـا صُفِّـقَـتْ تراهـا كلمـعـةِ برقٍ يَمَـانِ

---

(١) الأغاني ١١/٢٤١ ط. الثقافة.

(٢) السماديز: شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السكر.

(٣) الحقة من الإبل: الداخلة في السنة الرابعة.

(٤) الأغاني ٧/٤٤ ط. الثقافة.

(٥) المصدر السابق نفسه ٧/٣٢ وما بعدها ط. الثقافة.

(٦) ديوان الوليد بن يزيد ص٥٧، مجلة المجمع العربي بدمشق ـ المجلد الخامس عشر ـ الجزء الأول ـ دمشق ١٩٣٧م، و ص١٢٤ شعر الوليد بن يزيد، تحقيق حسين عطوان ـ عمّان سنة ١٩٧٩م.

وهكذا عدت خمريات الوليد بن يزيد جديدة على عصره ومعاصريه حتى أقامه النقاد قديماً وحديثاً الأب الروحي لكل مَنْ قال بعده في الخمر يقول أبو الفرج: (وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم وسلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع منه..)[1].

ولعل رائعته التي تبدأ بهذا البيت:

إصْدعْ نجَى الهموم بالطَّرب ... وَأَنْعَمْ على الدّهر بابنَة العِنَب[2]

جديرة بأن تلحقه بشعراء الخمر العباسيين حتى نسبت بعض المصادر هذه الخمرية البديعة إلى أبي نواس[3] لأن فيها روحه ومذهبه وحبكته الشعرية وموسيقاه وبعض مصطلحاته الفنية أيضاً.

أما أبو الهندي، عبدالله بن ربعي بن شبث بن ربعي الرياحي وقيل اسمه غالب[4]، فهو من شعراء العرب الذين هاجروا إلى خراسان ثم أقام بسجستان في «كوي زيان» أي سكة الخسران وكان يحيا حياة شاذة غريبة عاشت للخمر والفسق والضياع كما يدل على ذلك شعره[5] وهو من أكثر الشعراء فتنة بالخمر إلى درجة ظن معها أنه أوّل مَنْ وصفها من شعراء الإسلام[6] فقد كان يرى في الخمر تمام حياته النفسية والجثمانية، لذلك تفنن أبو الهندي في عرض عشقه للخمر في العديد من الصور والمعاني المبتكرة، وهو يصور نفسه طفلاً يرضع من در الخمر[7]:

رضيعُ مدامٍ، فارق الراحَ روحُه ... فظل عليها مستهلَّ المدامعِ
أديرا عليَّ الكأسَ إني فقدْتُها ... كما فقدَ المفطومُ دَرَّ المراضعِ

وهو يجعل ختام حياته مع الخمر أيضاً فيطلب أن يلتحف إذا مات بورق الكرم لتكون معصرة خمره في قبره من غير أن يعدم الرجاء في المغفرة عند الله[8]:

يا خليلي اجعلا لي كفناً ... ورق الكرم وقبري المعصرهْ
إنني أرجُو غداً من خالقي ... بعد شُرْبِ الراح حُسْنَ المغفرة

---

(١) الأغاني ٧/ ٢٠ ط. الدار. (٢) ديوان الوليد بن يزيد ص٣٤.
(٣) الأغاني ٧/ ٢٠ ط. الدار، ديوان أبي نواس ص٢٤٨ ط. آصاف.
(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص١٣٦.
(٥) المصدر السابق نفسه ص١٣٨.
(٦) الأغاني ٢٠/ ٢٩٣.
(٧) قطب السرور في أوصاف الخمور ص١٢٦. (٨) محاضرات الأدباء ١/ ٤١٤.

وقد بلغ غرام أبي الهندي بالخمر أن جعلته يتخلى عن بعض عاداته المعيشية، وتقاليده القومية، يذكر «ابن عبد ربه» أن أبا الهندي ضاف إلى راع يسمى سالماً فسقاه قدحاً من لبن فكرهه وقال[1]:

سيُغْنِي أبا الهنديِّ عن وطب سالِم ... أباريقُ كالغزلان بيضٌ نحورُهَا[2]
مُقَدَّمةً قَزاً كأنَّ رقابَهَا ... رقابُ كراكٍ أفزعَتْهَا صقُورُهَا[3]
فما ذرّ قَرنُ الشّمس حتّى كأنَّهَا ... أرى قريةً حولي تَزلْزَلُ دُورُهَا

فأبو الهندي قد سبق العباسيين إلى ما نسميه بالشعوبية الحضارية حين سخر من سقاء اللبن البدوي مفضلاً عليه أباريق الخمر بهذا يكون أبو الهندي مكملاً للوليد بن يزيد في فن الخمر على ما بينهما من اختلاف واضح في المعيشة وفي الطبقة الاجتماعية حتى أن النقاد الأقدمين ومعهم بعض المحدثين يرون أنهما كانا مورداً نهل منه المتأخرون[4].

. . . . . .

بعد هذا العرض السريع لخمريات الجاهليين والإسلاميين نستطيع القول إن هذه الخمريات لم تضع أمام أبي نواس نماذج يحتذيها فحسب وإنما استطاعت أن تضع أمامه بذور القصة الخمرية والاستقلال بقصيدة الخمر عن غيرها من الموضوعات الأخرى، وابتكار مصطلحات خمرية جديدة والوصف البديع لمجالس الخمر بعناصرها البشرية والمادية، هذا إلى عشق للخمر نفسها تجاوز حدود الإقبال وحب المعاقرة. كل هذا جعل بعض الجاهليين كالأعشى وبعض الإسلاميين كأبي الهندي والوليد بن يزيد أوثق وشيجة بأبي نواس من بعض معاصريه من شعراء الخمريات.

خمريات أبي نواس:

تبيّنا من العرض السابق لفن الخمريات، في العصرين الجاهلي والإسلامي كيف أن أبا نواس، كان مسبوقاً إلى هذا الفن، بصور من الإبداع بلغت من الجمال والروعة حد اتهام أبي نواس نفسه بالأخذ عمن سبقه[5] ومع هذا فقد اعتبر أبو نواس، عند النقاد، الأقدمين والمحدثين على

---

(١) العقد الفريد ٦/٣٤٢.
(٢) الوطب: سقاء اللبن.
(٣) مقدمة: موضوع عليها الفدام وهو مصفاة توضع على فم الإبريق.
(٤) الأغاني ٧/٢١، و ٢٠/٢٩٤ ط. الثقافة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢.
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص١٤٢.

السواء أستاذ فن الخمرية غير مدافع كماً وكيفاً[1]، حتى أن بعض الكُتّاب يعتبر فن الخمريات مجلى لشخصيته من حيث أنه أجرى شاعريته في الخمر[2] وإن حياته دارت على الخمر والحب، بل إنه أكثر كلفاً بالخمر منه بالحب[3]، حتى لقد زعم بعضهم أنه ربما كانت أشعاره في الخمر تُربي على ما قالته الأُمم الأخرى فيها، وذلك قياساً على رجحان كفة العرب في هذا الفن على كفة جميع الأُمم والحقيقة أنه قد يصعب أن نجد كاتباً تعرّض لدراسة شعر أبي نواس لا يحل خمرياته المحل الأول من بين فنون شعره[4] وكذلك يرى طه حسين، أن أبا نواس زعيم هذا الفن وأنه متفوق فيه على مَنْ قبله ومَنْ بعده[5] بل هو أستاذ الناس في فن الخمر[6] أو هو السباق (إلى معان في الخمر لم يأت بها غيره)[7] (وله في تصوير الكؤوس معنى سبق إليه . .)[8] أو كقوله أيضاً: (ومما يستحسن له في الخمر . .)[9] وغالباً ما يجعلونه أحد أشهر الثلاثة في وصف الخمر: الأعشى والأخطل وأبي نواس[10]، ويروي الجاحظ، قال: (سمعت إبراهيم النظام يقول وقد أنشد شعر أبي نواس في الخمر، هذا الذي جمع له الكلام فاختار أحسنه)[11]وعن ابن الأعرابي أنه قال يوماً لجلسائه ما أشعر ما قاله أبو نواس في الخمر، فكل انبرى لرواية شيء من شعره في الخمر، (فقال ابن الأعرابي إن هذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه، وتقدم مَنْ سبقه ومَنْ تأخر عنه، ولكن أشعر من هذا كله في قوله:

لا ينزل الليل حيثُ حلّتْ فدهرُ شُرّابها نَهارُ[12]

وفي خبر يرويه البغدادي[13] قال: اجتمع عند المأمون ذات يوم عدة فقال: أيكم القائل:

فلما تحسّاها وقفْنا كأنّنا نرَى قمراً في الأرض يبلعُ كوكبا

---

(١) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص٢٣١.

(٢) أبو نواس لعمر فروخ ص١١٥.

(٣) تطور الخمريات في الشعر العربي ص٢٠٨.

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص١٩٥ و ص٣٠٨.

(٥) حديث الأربعاء ٢/٨٣.

(٦) زهر الآداب ص٤٥٩.

(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٧٨٣.

(٨) المصدر السابق نفسه ص٧٨٦.

(٩) المصدر السابق نفسه ص٧٨٧.

(١٠) العمدة ١/١٠٠، أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٥٨.

(١١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٧٨، أخبار أبي نواس ١/٦٢.

(١٢) أخبار أبي نواس ١/٦١.

(١٣) تاريخ بغداد ٧/ ٤٤٥-٤٤٦.

قالوا: أبو نواس. قال: مَنْ القائل:

إذا نزلتْ دونَ اللهاةِ من الفتى دعا همَّهُ عنْ صدرِه برحيلِ

قالوا: أبو نواس، قال مَنْ القائل:

فتمشّت في مفاصلِهمْ كتمشّي البُرْءِ في السَّقَمِ

قالوا: أبو نواس. قال: هو أشعركم إذاً).

بل إن بعض القدماء يزعم أن جميع ما قاله أبو نواس في الخمر حسن[1]، وكان أبو تمام يعتبر ديواني أبي نواس ومسلم بن الوليد اللات والعُزى يعبدهما من دون الله[2]، وكذلك كان أبو عبيدة عظيم الإعجاب ببيتي أبي نواس:

بَنَيْنَا على كِسْرى سماءَ مُدامَةٍ مَكَلّلةٌ حافَاتُهَا بنجُومِ[3]

فلو رُدّ في كِسْرى بنِ ساسانَ روحُهُ اذنْ لاصطفاني دونَ كُلِّ نَديمِ

أما «الرقيق النديم» فقد اعتبر أبا نواس أمير الخمر وفارسها[4].

أما عند المحدثين، فيعتبر أبو نواس صاحب أوّل مدرسة في وصف الخمر عرفها الشعر العربي في شتى مراحله، وإن الخمر كانت عروس شعره بل هي شيطانه[5]، لأن الخمر كانت فنه الأول[6] بل لقد اعتبر بعض الكُتّاب أشعاره في الخمر إحدى الوثائق التاريخية لمجتمع القرن الثاني[7].

أما أبو نواس نفسه، فقد كان يرى أن أشعاره في الخمر لم يقل مثلها وأنها وغزلياته أجود أشعاره[8]. وعن أبي حاتم السجستاني، إن أبا نواس سُئل عن شعره فقال: (إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدي «أيها المنتاب عن عفره»، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي «طاب الهوى لعميده» فأما الذي أفنى فيه وحدي وكله جد فإذا وصفت الخمر. . .)[9] وكان أبو نواس إذا حضر حفلاً أو

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/١٨٦.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/٥٧.

(٤) قطب السرور في أوصاف الخمور ص٣٦٨. (٥) العصر العباسي الأول، لشوقي ضيف، ص٢٣٤.

(٦) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، لأنيس المقدسي ص١١٨، ١٢٠.

(٧) تاريخ الشعر في العصر العباسي، ليوسف خليف، ص٧٥.

(٨) أخبار أبي نواس ١/٥٤. (٩) أخبار أبي نواس ١/٥٩.

ندوة شعرية وجاء دوره في الإنشاد، ينشد إحدى خمرياته المشهورة[1] ومعنى هذا كله أن أبا نواس أعطى لخمرياته من الجهد والوقت ما لم يعطه لأي فن آخر، وهكذا كانت الخمر فنه الأول، حتى أصبحت أشعاره فيها أدل على ذوقه ومزاجه وفكره، كما أودعها حكمته وفلسفته في الحياة، وكذلك كانت خمرياته مفتاح باب الشهرة له والخلود ولقد استطاع بملكاته الخاصة ومواهبه الفذة أن يطور فن الخمريات كما لم يفعل شاعر آخر، ذلك أنه استطاع أن يمضي بما انتهى إليه من صور الأقدمين الخمرية ومعانيهم، قدماً حتى تفوّق على كل سابق عليه، وكل لاحق له، ومرد ذلك عندي إلى أمرين! أولهما شخصيته الفذة بمواهبها وملكاتها النادرة، الثاني التطور الطبيعي الذي حققه العصر العباسي في جميع مناحي الحياة اجتماعيًا وسياسياً وثقافياً.

ولقد كان تفوُّق أبي نواس في فن الخمر من الوضوح والقوة، حتى بدا من حوله من شعراء الخمر يزحفون من دونه على السفوح، وهو متربع على القمة وحده، فكأنه المبتكر الأول والأخير لفن الخمريات، وذلك لما اخترع من صور بديعة ووصف دقيق جامع شامل للخمر وألوانها وحاناتها ومجالسها ومتنزهاتها وأديرتها وأدواتها وأوانيها وأوعيتها وخماريها وسقاتها. كل هذا في لغة بديعة غنية بالتشبيهات والاستعارات البارعة مع حلاوة في النغم ورشاقة في اللفظ حتى كانت خمرياته الأكثر شيوعاً بين جمهور المتأدبين وعامة طلاب العلم والأدب والشعر، لأن أبا نواس لا يمتع عقولهم وأذهانهم بالبديع الرائع من خمره فحسب، بل لأنه أيضاً يداعب عواطفهم ويدغدغ أحلامهم بما يثيره فيهم من شهوات مستوفزة وتطلعات مكبوتة توافق سن الشباب المتحفز الباحث عن المتعة والحب واللهو، ولأن أبا نواس كان صادقاً مخلصاً في تعامله مع الخمر شاعراً ومعاقراً، فناناً وإنساناً، لذلك حفلت خمرياته بحرارة الصدق وقوة التأثير، فكلامه عن الخمر، ينم أوّل ما ينم عن حب صادق عميق وإيثار أشبه أن يكون عبادة. وحب أبي نواس للخمر حب طاغ لا يقف دونه وازع أو رادع ـ من ضمير أو دين أو خلق، وإباحياته الخمرية هي التي أغرت الشباب العربي في كل جيل وعصر بالعكوف على خمرياته بالمدارسة والحفظ والمذاكرة إن حبه للخمر ملك عليه فكره ووجدانه ومزاجه، لذلك تجيء خمرياته دائماً وهي مشحونة بأحر العواطف وأقوى الانفعالات، هذا مع تزيينه للحياة العابثة اللاهية المغرية للباحثين عن اللهو والعبث وزينة الحياة الدنيا، وعن متاع الغرور أيضاً. على أن خمريات أبي نواس ليست هذا كله فحسب، بل كانت أيضاً صورة طريفة للهوه وعبثه، ومجلى لثقافته وفلسفته فقد استنفدت من حياته الجد واللهو معاً، لأنها كانت خلاصة تجاربه المرة والحلوة معاً، وخلاصة جده وحكمته.

---

(١) أخبار أبي نواس ٢/٣٢ـ٣٣، والعقد الفريد ٥/٣٧٥.

وهكـذا مثلت خمـريات أبي نواس من خلال وجودها الشعري، الجد واللهو من حياة أبي نواس، فكانت له ضرورة الحاجة لا بد من البحث عنها والسعي في طلبها، كما كانت له مطلباً جمالياً لا بد من التعلق بها ومعايشتها وعشقها وحبها بحيث جمع الموضوع الخمري عند أبي نواس بين النفع وبين الجمال، بين الضرورة المادية وبين الشوق الوجداني. من أجل هذا كان لا بد لخمـريات أبي نواس حتى تستوفي مطلب الضرورة، وغاية الفن أن تتجاوز نوعين من العقبات والموانع. الأول، عقبات وموانع من التقاليد والمذاهب والأعراف الاجتماعية، كانت تحاول أن تمنعـه من التمتـع بمحبـوبتـه الخمـر، والنوع الثاني، عقبات وموانع من التقاليد الأدبية والفنية المتوارثة، كانت تحاول كبح جماحه عن التحليق مع محبوبته في السماء التي يريد أن يرقى إليها، وهكذا تعددت مظاهر رفضه وتحديه لكل عائق من دون حريته الاجتماعية أو الأدبية قارناً تلك الثورة بالسخـرية المـرة من أعـراف النـاس الاجتمـاعية وتقاليدهم الأدبية فيما عُرف في تاريخ الأدب ـ بالشعوبية التي وصفها بعض الكُتاب بالشعوبية الحضارية أو السياسية أو العنصرية..!

الخمر في شعر أبي نواس

باعتبارهـا حاجة ضروريـــة:

وهذا هو أحد الجانبين من حياته الذي مثلته الخمر بأن كانت حاجة ضرورية لا تستقيم له حياة بدونها وإلا أحس بالنقص والعوز، الجثماني والنفسي أيضاً، وقد عبّر أبو نواس عن هذا الجانب في العـديد من قصـائـده الخمـرية، كما كانت هذه النظرة الموضوعية، كفيئاً عدلاً لنظرته الأخرى الجمالية بحيث شكلا معاً نظرته الكلية إلى الخمر في صورة بناء شعري متكامل.

وهكذا رأى أبو نواس أن للخمر القدرة على إحياء النفوس بعد مماتها:

ومُـدَامـةٍ تحـيا الـنـفـوسُ بهَـا ... جَلّتْ مآثـرُهَـا عن الـوَصْـفِ[1]

كما كانت الغذاء للجسم والروح معاً:

فَقـلنَـا لهُ: إنّ الـمـدامَ غذاؤُنَـا ... وانـا أُولُـو عَقْـلٍ وأهْـلُ بصَـائـرِ[2]

وأنها دواء لكل مقروح الفؤاد:

فهـي فيهـا كلُّ ما يبْـلُغُ ... مقـروحُ الـفـؤادِ[3]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٦٦ طبعة الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٢٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٦٤.

وبها ينقشع الغم:

أدِيرَا عليَّ الـكـأسَ ينـقـشـعِ الـغَـمُّ ولا تَحْـبِـسَـا كأسِـي ففي حبسها إثْمُ[1]

فهي خير دواء للهموم وليس الماء القراح:

ليـس للهـمِّ دواءٌ كاغتبـاقٍ واصطبَـاحِ[2]
فلعـمـري ما يُدَاوَى الـهَـمُّ بالـمـاءِ القَـراحِ

حتى إذا خطرت عليه الهموم فليس مثل الكأس مذهباً لها:

إذا خطَرتْ فيك الـهـمـومُ فدَاوِهَـا بِكَـأْسِـكَ حتّـى لا تكُـونَ هُمـومُ[3]

والخمر إذن خير معين على مجابهة الهموم لأنها تمثل أجمل ما في الحياة، ولها الفداء الباقي الذميم من الحياة:

هلا اسـتـعـنْتَ على الهُمـومِ صَفْـراءَ من حلَبِ الكـرُومِ[4]
ووهـبْـتَ للعـيشِ الـحـمـيـدِ بقـيَّةَ الـعـيشِ الـذّمـيمِ

وفيها وفي الحب الغنى عما عداهما من الدنيا:

رضيتُ من الـدُّنيا بكـاسٍ وشَـادنٍ تخير في تفضيله فطن الفكـر[5]

ولذلك فلا خير في دنيا خلو من المدام مع الأكفاء من الندمان بين الورد والخيري والآس:

لا خير في الـعـيش إلا بالـمَـدام مع الأكفـاء في الورد والخيري والآس[6]

وكذلك كانت المدام مع النديم سلوى عن الغموم، وخير ما يداوى به السقيم من سقمه:

تَعـلَّلْ بالـمُـدامِ مع الـنـديمِ ففيه الـرَّوْحُ من كُرَبِ الغُمُـومِ[7]
وبـادِرْ بالـصَّـبُـوحِ فإنّ فيه شفـاءَ السُّـقْمِ للرَّجـلِ السقيمِ

وإذن فما على الإنسان إلاّ أن يبادر إلى الكأس قبل فوات الشباب:

---

(١) ديوان أبي نواس، ص١٠٤ ط. الغزالي.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٠.
(٣) ديوان أبي نواس ص١٣١ ط. الغزالي.
(٤) ديوان أبي نواس ص١٣٧ ط. الغزالي.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٣٩.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٤٠.
(٧) المصدر السابق نفسه ص ١٤٤.

بادرْ شبـابَـك قبـلَ الشَّيبِ والعْـارِ وحثحثِ الكـأسَ من بِكْرٍ لأَبْكَارِ[1]

وأن لا يتوانى عن مغاداتها في الوقت المناسب من غير أن يضيره تحريمها، لأن مَنْ فاته الخمر عاش محروماً هزيلاً:

واغـدُ إلـى الخَمْـر بأبَّـانِهـا لا تمتنـعْ عنهـا لتحـريمِ[2]
فمـن عدا الخمـرَ إلى غيرِهَـا عاشَ طليحـاً عيشَ محـرُومِ

وإذن فليس مثل الكأس مواسياً عن الهموم قاطعاً لدابرها:

لأقـطعَـنَّ بسـاطَ الـهـمّ بالـكـأسِ فليسَ للهمّ مثـلُ الكأسِ من آسِ[3]

والجاهل هو الذي لا يعرف فضل الخمر على الإنسان ولا ما تجديه من آلاء، أما أبو نواس فهو الخبير بفضلها العارف بقيمتها:

رُدّا عليَّ الـكـأسَ إنـكـمـا لَا تدريانِ الـكَـأْسُ ما تُجْـدِي[4]
ما مثـلُ نُعـمـاهَـا إذا اشتملتْ إلّا اشـتـمـالُ فمٍ على خَدِّ

وكذلك كانت الخمر خير سلوان عمّا تورثه فرقة الإخوان من أحزان:

لا تحـزنَـنَّ لفـرقـةِ الإخـوانِ واقْـرِ الفؤادَ بمُـذْهبِ الأحـزانِ[5]

وهكذا كانت الخمر بما تحدثه في عقل الإنسان تجلو عنه ما يعلق به من هموم، حتى أنها لتبعث في الشحيح الأريحية فتحثه على الجود، فيتظاهر بالغنى وهو معدم، ولذا كانت له أنفع من الماء وهو ظامىء:

تغـازلُ عقـلَ الـمـرء قبـل ابتسَـامـهِ وتَخْدعُـه عن لُبّـه وعـن الـحِلْمِ
وعـنـه يسـيلُ الـهـمُّ أوَّلَ أوّلاً وإن كان مسجُـورَ الـجـوانـح بالـهـمِّ
وينسـاقُ للجَـدْوَى وإن كان مُمْسكـاً ويُظْهـر إكـثـاراً وإنْ كان ذَا عُدْمِ
كذاكَ علمتُ الـرَّاحَ، ما الغَيْثُ في الـظَّمـا بأنْـفـعَ منـهـا في الـطبيعـةِ والجِسْمِ

ومن فعلها في العقول، أنها تبتعث فيها خلائق كامنة فالعاقل تزيد في عقلانيته، كما تزيد في

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٤٩.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٥٥.
(٣) ديوان أبي نواس ص١٥٩ طبعة الغزالي.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٨٢.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٩٥.
(٦) ديوان أبي نواس ص٢٠٢ طبعة الغزالي.

سفاهة السفيه من الناس، وهكذا يصبح أقل الناس عقلاً وهو صاح، أقلهم أيضاً وهو سكران في حين تبقى على العاقل عقله فكان الخمر محك لأفهام الرجال:

أرى الخمرَ تُرْبِي في العقولِ فتَنْتَضِي ... كوامنَ أَخْلاقٍ تُثيرُ الدّواهِيَا[1]
تزيدُ سفيهَ القومِ فضلَ سفَاهةٍ ... وتتركُ أَخْلاقَ الكريمِ كما هيَا
وَجَدْتُ أقلَّ النَاسِ عقلاً إذا انْتَشَى ... أقلَّهمُ عقلاً إذا كانَ صَاحِيَا

والهموم عادة ما تكون عوامل معوقة عن الارتقاء والتقدم أما الخمر، كما يقول أبو نواس، فعلى العكس، إنها تدفع إليهما وها هو شاعرنا يتقدم من أحد ندمائه وقد أخذ السكر منه مأخذه فيحاول إيقاظه من سكرته وهو مستغرق في همومه عارضاً عليه شربة من خمر تسري عنه وترتفع به على الهموم:

ومُتَرَّفٍ عقلَ الحياءُ لسانَهُ ... فكلامهُ بالوَحْيِ والإيماءِ[2]
لما نظرتُ إلى الكَرى في عينهِ ... قَدْ عقّدَ السجفنيْنِ بالإغفَاءِ
حرّكتهُ بيدي وقلتُ له انتبهْ ... يا سَيِّدَ الخُلَطاءِ والندماءِ
حتى أُزيحَ الهمَّ عنكَ بشَرْبَةٍ ... تَسْمُو بصاحِبها إلى العَلْيَاءِ

وأخيراً فإن الخمر أُم اللذات، لا يجوز السلو عنها إذا جاز عن غيرها، ففيها كل الغنى عمّا سواها من لذات.

اعزِمْ على سَلْوةٍ إلاَّ عن الكأسِ ... ودعْ سواها من اللذّاتِ للنّاسِ[3]

لأن الخمر لا تكاد تدخل جوف الإنسان حتى ترحل عنه الهموم فالخمر والهم لا يجتمعان:

إذا ما أتتْ دُونَ اللّهاةِ مَن الفتَى ... دعَا همُّهُ من صَدْرِه برحيلِ[4]

وما على الإنسان إلاّ أن يبدأ يومه بابْنة الكرم، حتى ينتصر بها على هموم الحياة:

بكرْ صبوحَكَ بابْنةِ الكَرْمِ ... بِمُدَامةٍ تُعْدِي علَى الهَمِّ[5]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢١٣ طبعة الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٢٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢١١.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٦.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٧٨.

إصراره على الخمر برفض لوم اللائمين فيها:

يمثل هذا الموقف من أبي نواس أحد الجوانب الموضوعية الإيجابية من حبه للخمر وعكوفه عليها، وذلك حين رأى في لوم اللائمين عدواناً على حريته الشخصية. إن رفض أبي نواس للوم اللائمين ليس رفضاً عشوائياً بل هو رفض بصير مقرون بالإصرار، وبالحجة، وبمواطن اللوم، وأسباب الدفاع، لذلك ساق المسوغات للإصرار على الخمر، كما تسلح بالأسباب الداعية للرفض، رافعاً عقيرته بالتحدي في وجه لوّامه وعذّاله من ذلك طلبه إلى نديمه أن يسقيه، بكأس الزجاج رغم لوم اللائمين:

اردُدْ عليَّ المدامَ بالجام وَسَقِّينهَا برغْمِ لُوَّامي[1]

حتى إذا أمره الخليفة أن يمتنع عن الخمر، اكتفى منها بالشم، تاركاً للائمين أن يمضوا في لومهم، ولكن المعروف أن أبا نواس لم يطق الصبر عن الخمر طويلاً حتى عاد إليها ضارباً بأمر الخليفة ولوم اللوام عرض الحائط[2]:

أيُّها الرائحانِ باللَّوم، لُومَا لا أذوقُ المُدَامَ إلاَّ شَمِيمَا[3]
نَالِنِي باللَّمَلاَمِ فيها إمامٌ لا أرَى لي خلافَه مُسْتَقِيمَا

على أن أحسن ما واجه به أبو نواس لائميه حين لمس هذه الدقيقة النفسية من حياة الملوم، وذلك لما أوتي من خبرة نفسية عميقة، ومن استكناه لحقيقة النفس البشرية فإن المعروف أن كثرة اللوم والنهي، من زجر وردع وتأنيب ربما أغرت الإنسان بالإصرار على ما هو فيه من خطأ كالتلميذ الذي ربما أضربه التعنيف والتقريع أكثر من أن يفيده، وهكذا كان حال أبي نواس مع لائميه، حين يطلب إليهم أن يكفوا عن لومه لأن ذلك ربما أغراه بما يريدون صرفه عنه وثنيه، لأن النهي عن الشيء كما قيل، داع إلى تعاطيه كآدم وحواء حين نهيا عن الشجرة.

وكمظهر للرفض والتحدي والإصرار، جعل أبو نواس ما هو محسوب عند لائميه داء، عنده دواء، أعني الخمر، وهكذا عاد لومهم عليهم بما لم يحسبوا حسابه ولم يقدروه أو يريدوه:

دعْ عنك لوْمي فإنَّ اللومَ إغراءُ ودَاوِني بالَّتي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ[4]

حتى إذا بلغ بلائميه حد إيلامه توجع ولكن دون أن يتراجع عن موقفه، لأن له أسلوباً خاصاً في

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٤ ط. الغزالي.
(٢) أخبار أبي نواس ١/١١٦.
(٣) ديوان أبي نواس ص٢٩ ط. الغزالي.
(٤) ديوان أبي نواس ص٦، طبعة الغزالي.

الطاعة والعصيان، وليس من عادته أن يفرط في حق الصبابة أو أن يلجأ إلى المكاس مع الخمار، وإنما هو باذل ماله مهين له في سبيل الخمر، حافظ لعرضه:

أعـاذلَ أنَّ الّـلومَ منـك وجـيعُ ... ولـي إمْـرَةٌ أعْـصِي بِهَـا وأُطيعُ[1]
كَفيتُ الصبِّـا من لا يهشُّ إلى الصّبـا ... وجَـمَّـعْـتُ منـه ما أضـاعَ مُضِيعُ
أعـاذلَ ما فرّطْـتُ في جَنْـبِ لذّةٍ ... ولا قلتُ للخَـمّـارِ كيف تبـيعُ
أُسـامـحـهُ أن الـمـكِـاسَ ضراعـةٌ ... ويرحـل عِرضـي عنـه وهـو جَمِيعُ

على أن أطرف ما وصم به أبو نواس لائميه حين سمى لومهم إياه بدعة، ومعروف أن هذا العصر كان عصر بدع وأفكار ومدارس ومذاهب فكرية كثيرة متبَاينة فمن سنة إلى شيعة إلى متكلمين إلى صابئة إلى زنادقة إلى غير ذلك من مجوس وسمنية ومانويين.. ونصارى ويهود.. كل هذه المذاهب والفرق يحتدم بينها النقاش والجدل فيما يجوز وما لا يجوز وكان طبيعياً والحالة هذه أن تكثر البدع والاجتهادات، حتى وجدنا شاعرنا يسمى اللوم بدعة، وكأن ذلك خروج على المألوف عنده من معاقرة الخمر والعكوف على اللذة، وهي بدعة كالإثم الفادح أو كإحدى الكبائر التي تدخل صاحبها النار. بل هي بدعة تلحق صاحبها بالكافر، وكيف يذعن للوم لائم، وهو الذي لا يزيده اللوم إلّا إصراراً على ما هو فيه، رافضاً الحد من حريته، لأنه لا يطيق صبراً عن الخمر، فاللوم إذن عدوان على حريته الشخصية حتى استوى عنده الإثم أو الوزر الفادح (في عرف لائميه) بالحرية (بمفهومها عنده). ويعلل أبو نواس عدم إقلاعه عن معاقرة الخمر أو عدم رفضه لها تعليلاً طريفاً لا يخلو من خبث ودهاء، وذلك حين يزعم أن الله سبحانه وتعالى نص في كتابه العزيز على اسمها دون أن يذكر كيف كان ورود الاسم، وكذلك خليفة الله الذي لا شك أنه الأمين، صديق الخمر، ولهذين السببين يرفض هو أن يرفضها مبقياً على رفقتها ما عاش معاقراً لها:

ولاحٍ لحـانـي كيْ يجيءَ ببـدعـةٍ ... وتـلك لَعَـمْـري خُطّةٌ لا أُطيقُهَـا[1]
لحـانيَ كَيْ لا أشـربَ الـراحَ، إنّهـا ... تُورّثُ وِزراً فادحـاً من بذوقُـهَـا
فمـا زادني الّـلاحُـون إلّا لجـاجَـةً ... عليهـا، لأنّـي ما حَييتُ رفـيقُـهَـا
أأرفُـضُـهـا واللهُ لم يرْفُضِ اسمَـهـا ... وهـذا أمـيرُ الـمـؤمـنـينَ صَدِيقُـهَـا

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧.

(٢) نفسه ص٩ طبعة الغزالي.

وهكذا يمزج أبو نواس رفضه للوم اللائمين بالتوقير والإعزاز للخمر، وإذن فمن الجهل اللوم في الحمر طالباً إلى لائمه أن لا يشين اسمها بلفظه، ومعروف أن أبا نواس كما سنرى في غير هذا المكان، خلع على الخمر من ألقاب وأسماء وصفات الإجلال والتمجيد ما لم يخلعه على أجل ممدوحيه وأعظمهم شأناً، وإذا جاز لنا المقارنة في هذا المجال، بين الخمر وبين ممدوحيه قلنا إن الخمر هي أعظم ممدوحيه خطراً وأجلّهم شأناً وأرفعهم مكاناً عنده لأن مديحه إياها كان خالصاً لوجه المدح ومديحه الأخرين لأسباب أخرى عرضنا لها في مكانها من هذه الدراسة.

عاذلي في المدام لا أُرْضيكَا ... إنَّ جَهْلا ملامُ من يَعْصيكَا[1]
لا تُسَمِّ المدامَ إن لُمْتَ فيها ... فتشينَ اسمَها المليحَ بفيكَا

وأبو نواس يجعل دائماً في إذنه وقراً عن سماع لائمه في الخمر، إن اللوم فيها خارج عن دائرة المعقول، ولذلك يطول العتاب مع هذا اللائم إذا حاول صرفه عن حبيبته لما بين أبي نواس ولائمه من اختلاف في التقويم فهما على طرفي نقيض من المعرفة بالخمر: اللائم ينصح برفضها لأنها تضر أو هي حرام، وأبو نواس يعتبرها شقيقة روحه.. أو معبودته أو رفيقة عمره.. إلى آخر ما أسبغ عليها وما أضفى من عشرات بل مئات ألفاظ التودد والإجلال والمتجيد:

أعاذلُ ما عَلى مِثْلي سبيلُ ... وعَذْلُكَ فِي المُدَامةِ يَسْتحيلُ[2]
أعاذلُ لا تلُمْني في هَواهَا ... فإنّ عتابَنا فيها يَطُولُ
كلانَا يدّعِي في الخمْرِ علماً ... فدَعْني لا أقولُ ولاَ تقُولُ

وما دام الأمر كذلك فلماذا يحمل اللائم نفسه شططاً في لوم أبي نواس، وها هو الشاعر يتوجه إلى لائمه بالنصيحة أن يقل عنه اللوم، وأن يشاركه لذته متحرراً من قيوده الدينية التي لا تتفق ولذة الخمر. فكلما دعاك داعي الصلاة أو الصوم فما عليك إلّا الخمر ترفع بها الصوم مازجاً إياه بالنوم، لنسيان ما بينهما من خلاف، هكذا فليكن دأبك مخالفة دأب الأخرين حتى تفوز بلذتك وحريتك أيضاً:

عاذِلي فيهَا أَطِعْني ... وَأَقِلَّ الانَ لَوْمي[3]
واشرَبِ الرّاحَ، ودَعْني ... مِنْ صَلاَةٍ كُلَّ يَوْمِ

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٣.
(٢) نفسه ص١٨٤ طبعة الغزالي.
(٣) المصدر السابق نفسه ص٢٠٥.

فارفعِ الصَّوْمِ بِشُرْبٍ وامزُجِ الخَمْرَ بنوْمِ
أَبداً ما عشْتَ خالِفْ دَأْبَ قوْمٍ بَعْدَ قوْمِ

وهكذا ظل أبو نواس يكرر هذا المعنى طويلاً في شعره:

«أيها العاذل دع لومي في شرب الرحيق»

كأنه يحس أن اللوم قيود تفرض عليه فرضاً للحد من حريته حيث يجدها في مزاولة أسباب اللذة وعلى رأسها وفي مقدمتها معاقرة الخمر. . . !

بل إن أبا نواس لا يتورع عن الإعلان باللفظ الصريح بأنه لن يقلع عن الخمر حتى إذا كان الثمن استبدال النار بالجنة، فليكن نصيب من لا يعاقرها الجنة وهو راضٍ بنصيبه في النار.

الراحُ شيءٌ عجيبٌ أنتَ شاربُها فاشربْ وإن حَمّلتكَ الراحُ أَوْزَارَا[1]
يا مَنْ يلوم على حَمْراءَ صَافِيَةٍ صِرْفِي الجنانِ ودَعْنِي أسكُنِ النّارَا

المظاهر الجمالية في خمريات أبي نواس

ـ أسماء الخمر وصفاتها وألقابها:

يقول أبو نواس:

أثنِ على الخمرِ بآلائِها وَسمِّها أَحْسنَ اسْمَائِهَا[2]

أما أحسن الأسماء التي يريد أبو نواس إطلاقها على محبوبته الخمر فكثيرة متنوعة شاملة لمختلف أحوال الخمر وقد أربت على جميع ما حفلت به الخمريات الجاهلية والإسلامية من أسماء وصفات وألقاب حتى تجاوز عددها العشرة والمئة منها ما هو مسبوق بها ومنها ما هو من مبتكرات العصر أو من مبتكرات أبي نواس نفسه ولم يذكرها «النواجي»[3] ولا «الرقيق النديم»[4] القيرواني.

وفيما يلي محاولة لضبط الأسماء والصفات المنقولة والتي وردت في أشعار السابقين عليه، أو التي ذكرها «النواجي» خاصة.

---

(١) الديوان ص٢٨٣ ط. آصاف.

(٢) ديوان أبي نواس ص١٣ ط. الغزالي.

(٣) حلبة الكميت ص٦ وما بعدها.

(٤) قطب السرور في أوصاف الخمور، في مواضع متفرقة.

الراحة ـ الراح ـ سلافة ـ شمطاء ـ المدامة ـ العتيق ـ عقار ـ الصرف ـ بكر ـ قرقف ـ الأسفنط ـ الزرجون ـ الطلا ـ القهوة ـ الصهباء ـ نبيذ ـ شمول ـ كميت ـ الخندريس ـ مشمولة ـ خرطوم ـ مشعثة ـ عتيق ـ عذراء ـ معتقة ـ طيبة (المذاق) ـ شراب (خروب) ـ عروس ـ مزة ـ بابلية ـ بنت كرم (عنب) ـ سلسالة (الطعم) ـ رحيق بنت الدهر (أم) ـ سلسل ـ الدم (دم الشادن) ـ جريال البيسانية ـ الخمر ـ صافية ـ درياق.

أما الأسماء والصفات الأخرى التي لم يذكرها «النواجي» فهي:

ياقوتة ـ الصبوح ـ الصبا ـ خسروى (في وصف الشراب) ـ الشمس ـ أميرة ـ مختوم ـ المسك السحيق ـ محجبة ـ ذهبية ـ كريمة الجدين ـ مصونة ـ لهب ـ لؤلؤ ـ الداء والدواء ـ نار ـ زيتية ـ كرخية ـ سلم ـ حرب ـ سخامية ـ رقيقة السربال ـ جمر ـ مسك ـ ربيبة كسرى ـ كريمة ـ عجوز حمراء ـ عصارة الورس ـ شهاب دجن ـ زرقاء ـ يهودية ـ مسلمة ـ مجوسية ـ شامية ـ عراقية مسحولة.

وجميع هذه الأسماء والصفات تدل على شيئين اثنين هامين. أولهما، عمق الصلة التي كانت تربط بين أبي نواس والخمر. الثاني أن هذه الأسماء والصفات تعتبر جزءاً من ثقافة الشاعر وخبرته مما أغنى الكيان الشعري للخمر، وأثرى التجربة الشعرية للشاعر. هذا، ويمكننا أن نصنف جميع ما ورد من أسماء الخمر وصفاتها في شعر أبي نواس في ثلاث قوائم تتناول كل قائمة منها جانباً من حياة الخمر النواسية.

أما القائمة أو المجموعة الأولى فالغالب عليها طابع الوصفية التقريرية كأن تحدد لون الخمر أو نسبتها إلى بني جنسها أو وطنها أو دينها، أو أنها تحدد طعمها ولونها أو رائحتها مثل: كرخية، (شراب) خسروي وخسرواني ـ بابلية ـ مجوسية ـ يهودية ـ مسلمة ـ عراقية ـ شامية ـ بيسانية ـ بيضاء ـ صفراء ـ الصبوح ـ خرطوم ـ قرقف ـ عقار ـ الراح ـ الراحة ـ المدام ـ القهوة ـ الكميت ـ مشمولة ـ عتيق ـ بنت الدهر...!

أما القائمة الثانية فتضم مجموعة الأسماء والصفات التي تمجد الخمر بل تقدسها والغالب عليها التودد والتحبب للخمر والتمدح بآلائها ومفاتنها من مثل: رحيق ـ ودم الشادن ـ ومشعشعة ـ والمسك السحيق ـ وذهبية ـ ودر ـ وكريمة الجدين ـ ولهب ـ ولؤلؤ ـ ومسك ـ وربيبة كسرى ـ وعصارة الورس ـ وشهاب دجن ـ ونار وزيتية ـ وياقوت ـ وشمس ـ وفواحة ـ والعقيق...!

أما القائمة الثالثة فتضم مجموعة الأسماء والصفات التي تدل على علاقة خاصة، ومن خلالها كان الشاعر ينظر إلى خمره، نظرته إلى أُنثى يشتهيها، وربما كان أبو نواس أوّل مَنْ أصّل هذا

الاتجاه في الشعر العربي إذا كنا وجدنا له ظلالاً عند الأعشى وبعض شعراء الخمر الإسلاميين كأبي الهندي، ولكن هذه الظلال أو البوادر الساذجة لم تتضح معالمها وتصبح تياراً متميزاً إلاّ على يدي أبي نواس الذي يعتبر المؤصل الحقيقي لهذا المنزع المجدد في شعر الخمر، وهكذا أضفى أبو نواس على الخمر الأسماء والصفات التي تطلق عادة على المرأة من مثل: بكر ـ عروس ـ ربيبة كسرى ـ كريمة ـ اخت شيطان ـ أميرة محجوبة ـ عذراء.

ـ الخمّـــار:

يعتبر الخمّار في خمريات أبي نواس عنصراً أساسياً وركناً هاماً لا غنى عنه في فهم هذه الخمريات والوقوف على أبعادها الجمالية والموضوعية، فهو دليلنا إلى الرحلة في عوالم أبي نواس الخمرية بيده مبزل الدنان والجرار وأشفى البواطي والزقاق، وهو القيِّم على شؤون الخمر وحافظ عورتها، وسادن صومعتها والموكل باستقبال عشاقها من الزائرين، في الحانة أحياناً، وفي الحانوت أو الدير أحياناً أخرى، وهو التاجر والدهقان، أو الساقي والنديم وهو الشاب ذو الجمة، وهو العجوز الأشمط أو الشمطاء وهو العلج الأزرق. كما أنه اليهودي أو النصراني أو الفارسي المجوسي أو النوبي الأسود أو الرومي أو النبطي أو الكردي الجبلي الشديد وهو الزميت أو المتسامح، كانت مهامه كثيرة وخطيرة، كما دلنا عليها أبو نواس ولكنها جميعاً منوطة برغبة شراب الخمر ومعاقريها، وبالسهر على مصلحة الخمر نفسها وصيانتها وإتحاف زواره بها وتهيئة الأجود منها. كذلك فإن للخمّار دوراً هاماً في قصص أبي نواس الخمرية التي عادة ما تبدأ بالحوار مع الخمّار عند ولوج الحانة وتنتهي بوداعه في الهزيع الأخير من الليل وهو يودع الحانة.

هذا، وفي ظل تسامح المسلمين وتركهم لأهل البلاد المفتوحة حرية المتاجرة بالخمور مثل بقية السلع[1] كثرت الحانات حتى كان منها الخاص والعام[2]، كما كثر عدد الخمّارين ومعظمهم من الأعاجم مع تعدد جنسياتهم ودياناتهم حتى أصبح من تمام الة الخمار كما يقول الجاحظ:

(أن يكون ذمياً ويكون اسمه أذين أو شلوما أو مازيار أو ازدا نقاذار أو ميشا ويكون أرقط الثياب مختوم العنق. . .)[3].

---

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي ص١٠٦ لجميل سعيد.

(٢) المسالك والممالك للعمري ص٣٩٥.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٩٤.

أما أبو نواس فقد وقفنا على الكثير من أحوال الخمّار متجاوزاً أحواله المعيشية إلى إضفاء صورة فنية عليه من خلال وجوده الشعري وهكذا جاءت شخصية الخمّار مثيرة جذابة، حتى اسمه يقدمه لنا أبو نواس في العديد من الصور فربما جاء به مجرداً من غير صفة أو إضافة مثل:

وخمّارٍ حططتُ إليهِ ليْلاً قَلائصَ قَدْ ونينَ من السِّفارِ[1]

وربما جاء اسم «الخمّار» مضافاً إلى «بيت» أو «منزل» مثل قوله:

- وفتيانِ صدْقٍ قد صرفتُ مَطِيَّهمْ إلَى بيتِ خمّارٍ نزلْنا بهِ ظُهْراً[2]
- يا ربَّ منزلِ خمّارٍ أطفتُ بهِ والليلُ حُلّتهُ كالقارِ سَوْدَاءُ[3]

وربما دعا الخمّار دهقاناً:

خطبْنَا إلَى الدّهقانِ بعضَ بناتهِ فزوّجنَا منهُنّ في خِدْرِهِ الكُبْرَى[4]

أو تاجراً مضافاً إلى حان كقوله:

نحنُ في حانِ تاجرٍ عندنا اللهـــوُ بحِلْمٍ لمْ نمتزجْهُ بطَيْشِ[5]

أو ربّ حانة كما في قوله:

إلى حاناتِ خمرٍ في كرُومٍ معرَّشَةٍ، مُعْرَّجَةِ النَّواحِي
فأقبلَ ربُّها يسعَى إليْنَا يُهَنِّئُ بالفلاَحِ وبالنَّجَاحِ[6]

أو ربّ «حانوت»:

وأشْمَطَ «ربِّ حانوتٍ» تراهُ لِنَفْخِ الزِّقِ مسْوَدَّ السِّبَالِ[7]

كما يسمى أبو نواس جملةً من النساءِ الخمّاراتِ من غير المسلمات[8]، وكانت كثرتهن من

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧٧ ط. الغزالي. وأيضاً ص٨٥، ٨٨، ٩٣، ١٠٠، ١٣٥، ١٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٦١، وأيضاً ص ١١٠ و ١٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٧٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١١٨ وأيضاً ص٢٠٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٨١، والدهقان هو التاجر أو زعيم خلاص العجم.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٦٩، وأيضاً ص٦٧.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ٦٢، وأيضاً ص٤٨.

(٨) ألحان الحان ص١٨.

اليهوديات[1] وإن يكن للنصارى في إدارة الحانات باع طويل[2] وقد أطلق أبو نواس على هؤلاء الخمّارات اسم ربات الحوانيت، منهن هذه الخمّارة الكافرة الشمطاء.

إذا بكافرةٍ شمطاءَ قد برزَتْ فِي زيِّ مختشَعٍ لله، زِمِّيتِ[3]

ومنهن خمّارة يهودية أو كما يقول أبو نواس دين «ابن عمران» دينها، ولكنها مهذبة وكنيتها أُم حصين:

لخمّارةٍ دينُ ابنِ عمْرانَ دِينُها مهَذّبةٍ تُكْنَى بأُمِّ حُصَيْنِ[4]

وأخرى لا يزال فيها بقية من جمال تتاجر بها:

وخَمّارةٍ لّلهو فيهَا بقيّةٌ إلَيها ثلاثاً نحْوَ حَانَتِها سِرْنَا[5]

ورابعة شمطاء كافرة خبيثة استطاعت أن تكسب ود «الوالي» فهي تعتز بحمايته لها:

في بيتِ كافرةٍ بالخمرِ تَاجِرةٍ شمطاءَ، شاطرةٍ تعتزُّ بالوالي[6]

وأُخرى سيئة الطباع يهودية جميلة ولكنها ما إن يستخفها السُكْر حتى تصبح في صولة الجبار:

لَا سيّما عند يَهُودِيَّةٍ حوراءَ، مثل القمر السَّارِي[7]
تَسْقِيك من كفٍّ لها رطْبةٍ كأنها فلقةُ جُمَّارِ
حتى إذا السُّكر تَمَشّى بِهَا صار لها صَوْلَةُ جَبَّارِ

ويحدثنا أبو نواس عن خمّارة قوادة فما أن طلب إليها هو وأصحابه مواقعتها حتى افتدت نفسها بغلام يصفه أبو نواس «بأبلج كالدينار في طرفه فتر»:

وخمَّارةٍ نبّهتُها بعْدَ هجْعَةٍ وقد غابت الجوزاءُ، وارتفعَ النّسرُ[8]

---

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي ص١٠٨.
(٢) المسالك والممالك للعمري ص٢٩٣.
(٣) ديوان أبي نواس ص٣٨ ط. الغزالي.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٨٦.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٩.
(٦) ديوان أبي نواس ص ٦٨٠ ط. الغزالي، وص٣١٥ ط. آصاف.
(٧) المصدر السابق نفسه ص ٥٤.
(٨) المصدر السابق نفسه ص ٢٨.

فقالت «من الطراقُ» قلنا «عصابةٌ خفافُ الاذَاوَى يُبْتغَى لهمُ خمْرُ
ولا بدَّ أن يزنوا فقالت: «أو الفِدَا بأبلَجَ كالدِّينارِ في طَرْفِهِ فَتْرُ
فقلنا لها: هاتِيهِ، ما إنْ لِمِثْلِنَا فديناكِ بالأهلينَ عنْ مثلِ ذَا صَبْرُ

ولا ينسى أبو نواس أن يحدثنا عمّا كان يجري بين روّاد الحانات والخمّارين من مكاس ومساومة فهذه «دهقانّة» ميزانها نصب عينها، وهو ميزان غشوم ومع هذا فأبو نواس يترضاها حتى تجود له في الخمر:

ودهْقَانَةٍ ميزانُها نُصْبَ عَينِهَا ومِيزَانُهَا للمُشْتَرِينَ غَشُومُ[1]

ومن الخمّارين الذين ذكرهم أبو نواس «العلج»:

فقلتُ للعِلْجِ عَلِّلْنِي، فَرُبَّ فَتًى عَلَّلْتُهُ فانْثَنَى من نَشْوةِ الرَّاحِ[2]

أو «الأشمط» المعروف بكرم الاستقبال، ومع هذا فهو ذمي كافر ظاهر الشرك:

فلما حللْناها نزلْنَا بأشمَطٍ كريمِ المُحَيّا، ظاهرِ الشّركِ، كَافرِ

ومنهم الفتى في رونق الشباب كقوله في وصف خمّار فتى عبادي نصراني:

وربَّ مُحَضَّبِ الأطرافِ رَخْصٍ مليحِ الدّلِ، ذِي وَجْهٍ صبيحِ[3]
ظفرتُ به، ونجمُ الصُّبحِ بادٍ عِبَادِيّاً على دينِ المسيحِ
فَسُرّ بطَلْعتِي لمّا رآني وأيقنَ أنَّني غيرُ الشّحيحِ
وقام بمِبْزَلٍ فافتضَّ بِكْراً عَجُوزاً قد تَجِلُّ عن المَديحِ

وكثيراً ما يبدأ أبو نواس خمريته متغنياً بجمال الخمار، كقوله أيضاً:

وأحورَ، ذِمّيٍّ، طرقْتُ فنَاءَهُ بفتيانِ صِدْقٍ، ما تَرى منهم نُكْرا[4]
فلما قرعْنا بابَه هبَّ خائفاً وبادرَ نحو البابِ، مُمْتَلِئاً ذعْرَا
وقال: «من الطرّاق ليلاً فنَاءَنَا فقُلْتُ له: «افتَحْ! فِتْيَةٌ طلبُوا خَمْرا
فأطْلَقَ عن أبوابِهِ غيرَ هائبٍ وَأَطْلَعَ من أزرارِهِ قَمَراً بَدْرا

وهذا خمّار فتى له وفرة أيقظه أبو نواس من نعاسه من غير أن يبتذل نفسه، فقد كانت هناك

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٣١ ط. الغزالي.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠٩.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٦٤.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.

كاعب بيضاء حسناء تقوم مقامه:

يا ربَّ منـزلِ خمـارٍ أطـفْـتُ بهِ والـليلُ حلتـهُ كالـقـارِ سَوداءُ[1]
فقـام ذو وَفْـرة من بْطن مَضْـجـعـهِ يمـيلُ من سُكْـرِه والـعـينُ وَسْـنـاءُ
فقـال «مَـنْ أنـتَ» في رِفـقٍ فقـلْتُ لهُ «بعضُ الكـرام..!» ولي في النّعْتِ أسْمـاءُ

هذا، وتطالعنا من بين خمريات أبي نواس جملة من أسماء الخمّارين المشهورين منهم ابن آذين صاحب حانة قطربل[2]، وفيها يقول أبو نواس[3]:

اسـقـنـي يا ابـن أذينِ من شَرابِ الـزَّرَجُـونِ

ومنهم «جابر» صاحب حانة جابر[4]، وكان (لطيف الخلقة نظيف الثياب، نظيف الآلة...). وفي حانة هذا الخمّار عاد أبو نواس إلى معاقرة الخمر بعد أن توعده الأمين إن هو شربها فشربها وأعلم الأمين بالأمر فسامحه ورضي عنه[5]. وخمّار ثالث اسمه سرجس[6] وكان خمّار حانة «طيرنا باذ» ومنهم أيضاً خمّار اسمه «سابا» ولقبه «شمر» وفيه يقول أبو نواس:

فقـلتُ له ما الاسـمُ حُيِّيتَ قالَ لي دعَـانِـي أبـي سَابَـا وَلـقّـبـنِي شَمْـرَا[7]

وخمّار آخر يدعى «سموأل» وكنيته أبو عمرو، من غير أن يكون له ولد بهذا الاسم:

فقـلْنَـا لَهُ: مـا الاسْـمُ قَالَ «سـمَـوألُ علَى أنّـنـي أُكْـنَـى بِعَـمـرٍ وولا عَمْـرَا[8]

ومنهم أيضاً الخمّار النصراني «ياري» وكان ينزل في ناحية نهر طابق ببغداد، وكثيراً ما كان أبو نواس يغشي حانوته وفيه يقول إشارة إلى أنه جاءه أبو نواس وهو مخمور:

داوِ يَحْـيـى من خُمَـارهْ بابنـةِ الـدّنِ وقَـارِه[9]
من شرابٍ كُسْـرَويٍّ ما تَعـنَّـوْا باعْـتـصَـارِهْ

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧٠٠ ط. الغزالي، وط. آصاف ص٢٣٥.
(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري ص٣٩٤.
(٣) ديوان أبي نواس ص٧٠ ط. الغزالي، وأخبار أبي نواس، لابن منظور ٢١٢/١.
(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري ص٣٨٩.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣٩١.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٩٢.
(٧) ديوان أبي نواس ص١٢٤ ط. الغزالي.
(٨) المصدر السابق نفسه ص ٦١.
(٩) أخبار أبي نواس، لابن منظور ١٥٦/١.

وبالنظر إلى أن هوى أبي نواس كان مع الفرس لذلك رأيناه يبرى الخمّار المجوسي من الغش أو العيب في قوله:

أُتيح لها مجوسيٌّ رقيقٌ نقيُّ الجيبِ من غشٍ وذَامِ[1]

وربما استدل بزنار الخمّار، شارة أهل الذمة، على ديانته من كونه غير مسلم:

فلما حكى الزنارُ أن ليسَ مسلمًا ظَننّاهُ بهِ خيراً فظنَّ بنا شَرًّا

وربما دلت هيئة الخمّار على موطنه كهذا الخمّار الكردي من سكان الجبال الأشداء:

عتقها الكُرديُّ في مجلسٍ بينَ بساتينَ وأجْبَالِ[2]
ثم أتانا ناكساً رَأْسَهُ منحدراً منْ مَرْقَبٍ عَالِ

ومن الخمّارين مَنْ يُنتسب إلى السود من أولاد حام:

إلى بيتِ خمّارٍ أفادَ زِحامُهُ له ثروةً والوجهُ منه بَهِيمُ[3]

وواضح مما تقدم أن أبا نواس لا يكاد يترك جانباً من الخمّار إلا ألم به إلماماً كافياً من ديانته إلى جنسه إلى لونه إلى سِنّه إلى جماله وغير ذلك من أحواله وملابساته.

ـ مجلس الخمر:

لمجلس الخمر في خمريات أبي نواس اهتمام خاص سواء من حيث عناصره البشرية من ندمان وسقاة وساقيات ومغنين ومغنيات أو من حيث عناصره المادية كأدوات الخمر من زقاق وجرار ودنان وبواط ودوارق وقوارير، هذا إلى ما يجري على جميع هذه العناصر من أحوال وملابسات، على أن الغالب أن تنعقد مجالس الخمر حيث تجمع بين لذة الشراب وجمال المشهد ومتعة الحب فهذا هو المثلث الجمالي عند أبي نواس والذي كان يشكل الجو العام لنظم الشعر. يذكر ابن «عبدربه»: أن أبا العتاهية التقى بأبي نواس (فقال له: أنت الذي لا تقول الشعر حتى تؤتى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك؟ قال: وكيف ينبغي للشعر أن يُقال إلاّ على هكذا...)[4].

هذه هي البيئة الصالحة التي كانت تمنح أبا نواس غاية ما كان يصبو إليه من شعر وخمر أو خمر

---

(١) ديوان أبي نواس ص٦٩٣ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٤٣.

(٣) ديوان أبي نواس ص١٣١.

(٤) العقد الفريد ٥/٣٢٦، وانظر أيضاً أخبار أبي نواس، لابن منظور ١/٥٥.

وشعـر لأنهما قرينان عدلان، ولأن الخمر هي حياة الشعر والشعر هو وحي الخمر عند أبي نواس فمجالسه الخمرية هي التربة الخصيبة الصالحة لإنبات ورعاية بذرة الشعر في نفسه.

هذا، ونستطيع أن نحدد ثلاث بيئات خمرية كانت تنعقد فيها مجالس أبي نواس هي الحانات أو الخمّارات والبساتين أو المتنزهات، والبيئة الثالثة هي الأديرة. لكن الواقع أن خمريات أبي نواس تقدمها في صورة متشابهة لاشتمالها جميعاً على نفس العناصر والأجواء والأشخاص (مع اختلاف الألقاب أو الصفات) التي كان لا بد أن يلتئم عليها المجلس الخمري النواسي، وهكذا فسنقتصر في حديثنا على الأديرة لمكانتها المتميزة في نفس أبي نواس وخمره وشعره لا في مجالسه الخمرية فحسب وإنمـا في خمرياته عامة. هذا، وتختلف الأديرة باختلاف مواضعها (فمنها ما تسنم قمم الجبـال أو ما توسـد ضفـاف الأنهار، ومنها ما اقترب من المدن والأرياف أو ما انفرد في البراري والقفـار)[1]. وقـد يسمى الـدير «العمـر» بالضم والفتح[2]، ومن ملحقات الدير الكنيسة والهيكل والقلالي أو القليات (مفرد قلية أو قلاية أي الصومعة) وبيوت المائدة ومستودعات الخمور ومعاصر الكـروم والحـانـات ودور الضيافة وحجر الرهبان وحجرة رئيس الدير[3] وكان الدير أشبه بمستعمرة مستقلة بحياتها الاقتصادية والاجتماعية[4]، وربما كانت الكروم أكثر المزروعات حظاً من عنايتهم ممـا أكسب خمور الأديرة شهرة واسعة، حتى كان الوليد بن يزيد يقصد من دمشق «دير حنة» في نواحي الحيرة[5] لشهرته بالخمر الجيدة وشهرة خمّاره «مرعبدا» بالنظافة وحُسن الخدمة، كما كان النعمان بن المنذر من قبل يركب كل يوم أحد ومعه أهل بيته وخاصته إلى دير اللج[6] وكذلك كانت القوافل تحط في تلك الأديرة رحالها ومثلها المسافرون فتقوم على خدمتهم جميعاً مقام الفنادق[7]، كمـا أقام الخمارون حاناتهم من حول هذه الأديرة[8] لاجتذاب أهل الخلاعة والمجون من الشعراء

---

(١) الديارات للشابشتي ص٣١ (المقدمة)، وانظر أيضاً معجم البلدان، لياقوت، (الدير).

(٢) القاموس المحيط (العمر).

(٣) الديارات وملحقاتها: مجلة الرسالة ـ العدد ٧١٣، ص٢٥٢ سنة ١٩٤٧م.

(٤) تطور الخمريات في الشعر العربي ص١٧٩.

(٥) المسـالك والممالك للعمري ص٣٢١.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٢٦.

(٧) المسالك والممالك للعمري ص٣٠١، والديارات ص٢٣.

(٨) الديارات ص١٥٠.

وغيرهم، فأقاموا بذلك سوقاً للطرب والغناء والرقص[1]، وهذا مما جعل لتلك الأديرة دوراً بارزاً في مجالس أبي نواس الخمرية فترددت أسماء العديد منها في خمرياته منها «دير حنة» وكان من أنزه الأديرة لكثرة بساتينه وتدفق مياهه[2] ولأبي نواس فيه الخمرية:

يا دير حنـةَ من ذاتِ الأكـيزاحِ منْ يصْـحُ عنـكَ فإنّي لستُ بالصَّاحِي[3]

ودير «الزندوردة وهو بالجانب الشرقي من[4] بغداد وفيه يقول أبو نواس:

فسقّني من كروم الـزّنـدوردِ ضُحًى ماءَ الـعنـاقيدِ في ظِلِّ العنـاقيدِ[5]

ومنهـا أيضـاً دير «سرجس» وسمّاه ياقوت دير سرجس وبكس وقال إنهما رجلان. ويقول عنه الشـابشتي: (وكـانت أرضـه محفـوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر. . .)[6] وبعد خرابها ظلت بقايا من قباب تسميها الناس معصرة أبي نواس أو قباب أبي نواس[7] وله فيها قوله:

قالـوا تنـسَـكَ بعـد الـحـجِّ قلت لهُـمْ أرجُـو الإلـهَ وأخْـشَـى طَيْرَنَـا بَاذَا

وأما دير الغادر فقد سُمي بهذا الاسم لفضيحة غدر فيها راهب الدير بأبي نواس[8] ومنها أيضاً «ديارات الأساقف»[9] بظاهر الكوفة وهي قباب وقصور وبها نهر يُعرف بالغدير عن شماله يقع الدير وهو قصر عظيم من أبنية ملوك لخم وفيه يقول أبو نواس يذكر أيامه بالدير:

عدن لي بالـديرِ أيّامَ قَصُـفِ وسـرورٍ مع النّـدامَى وعَـزْفِ[10]
وعـيونُ الـظبـاءِ ترنُـو إلَـيْنَـا منـعـمـاتٍ بكـلِّ برّ ولـطْفِ
ورحيمُ الخُـطَا يكـادمن الـرّقـةِ يُدْمِي أديمَـه كُـلُّ طَـرْفِ
حَلَّ منـه الـصـليبُ في موضـعِ الـجيـدِ فقـدْ خصّـه علَى كُلّ إلْـفِ

---

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي ص١٨٥.

(٢) المسالك والممالك ١/٣١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/٣١، ومعجم البلدان (دير حنة).

(٤) معجم البلدان (دير الزندورد)، والروض المعطار ص٢٥٤.

(٥) الديارات ص٢١٥.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٥٠، المسالك والممالك للعمري ص٢٨٤.

(٧) معجم البلدان (دير سرجس وبكس).

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) الديارات ص ٢٥٢.

(١٠) المصدر السابق نفسه ص ١٥٣.

وادرْنَا رحَى النَّعيم ثلاثاً ووصَلْنا النعيمَ كفاً بِكَفٍّ

وأهم ما في هذه المقطوعة تسميتها الخمر بالنعيم تعظيماً لها وإكباراً.

ومن الأديرة المنصوص عليها في خمريات أبي نواس «عمر مريونان» بالضم[1] وقيل بالفتح والضم[2] ويقع بالأنبار. يصفه الشابشتي بالجمال والحسن وبكثرة قلاياته ورهبانه وهو محكم البناء كأنه حصن وقد أكثر الشعراء من ذكره ومنهم أبو نواس حيث يقول في خمرية معروفة:

آذنك الناقوسُ بالفجْرِ وغرّد الراهبُ في العُمْرِ[3]

ومن الأديرة التي ألمّ بها أبو نواس في بلاد الشام «دير فيق» المنقور في الحجر والواقع بين مدينة فيق وبحيرة طبريا ويزعم النصارى أنه أوّل دير عُمِل للنصرانية وأن المسيح كان يأوي إليه ومنه دعا الحواريين. ولأبي نواس في هذا الدير قصيدة طريفة يخاطب بها غلاماً نصرانياً كان يهواه وقد ملأها بالإشارات والأسماء النصرانية وفيها يقول:

وبالحُسْنِ المركّبِ فيك إلاّ رَحمْت تحرّقي وجفوفَ ريقِي[4]
أما والقربِ من بُعدِ التّنائِي يمينَ فتًى لقائلهِ عشيقِ
لقد أصبحتَ زينةَ كلِّ دير وعيدٍ مع جفائِكَ والعقُوقِ
وأذعن عَاشقُوك إلى النَّصارى من الإسلام طراً بالمُروقِ

ومن ديارات الشام أيضاً «دير الرصافة» الذي كان منتجعاً لبعض خلفاء بني العباس[5]. والظاهر أن أبا نواس مرّ بهذا الدير أثناء رحلته المصرية من غير أن يطيل المكوث فيه فلما رحل عنه قال:

ليسَ كالدّيرِ بالرُّصافةِ ديرٌ فيه ما تشْتهِي النفوسُ وتَهْوَى[6]
بتّه ليلةً فقضيْتُ أَوْطَاراً، ويوماً ملأْتُ قُطْريْهِ لَهْوَا

هذا، ويعتبر «دير ديماس» من أشهر الديارات الشامية ونسبته إلى نهر ديماس ويقع بين دمشق

---

(١) الديارات، للشابشتي، ص١٦٦.

(٢) لسان العرب (عمر).

(٣) ديوان أبي نواس، ط. أصاف ص٢٧٦.

(٤) الديارات، للشابشتي ص١٣٢، والفكاهة والاثتناس في مجون أبي نواس ص٨٠-٨١.

(٥) المسالك والممالك ص٣٣٣.

(٦) معجم البلدان لياقوت (دير الرصافة).

وحمص في رياض وبساتين يذكر العمري[1] أن أبا نواس لما دخل حمص في رحلته المصرية دعاه بعض أدبائها إلى هذا الدير ومعه أشجع السلمي فجلسوا يتناشدون الأشعار كما نعرف أن أبا نواس زار في حمص الشاعر ديك الجن أيضاً.

وبعد هذا العرض لجملة الأديرة التي ألمّ بها أبو نواس نحس أنه قد حان الوقت لنثبت بصورة عملية صدق ما ذهبنا إليه في مستهل هذه الكلمة عن مجالس أبي نواس الخمرية ما كان منها في دير أو حانة أو بستان.

ففي الخمرية التالية، التي لا يتجاوز عدد أبياتها أحد عشر بيتاً، صورة واضحة لمجلس خمري في دير بهراذان ليس من بين الأديرة التي أشرنا إليها[2] وهو مجلس له بداية وله نهاية، لولا نص أبي نواس على اسم الدير في البداية لما عرفنا أن المجلس التأم في دير، وأما النهاية فهي، كما سنرى عند عرضنا لبعض المجالس الأخرى، تكاد تكون واحدة:

بدير بهْـراذانَ لي مجـلِسٌ ... ومـلْعَـبٌ وسطَ بسـاتـينِـهِ[3]
رحـتُ إلـيهِ ومـعـي فتـيةٌ ... نزورهُ يَوْمَ سعَـانـينِـهِ
بكُـلِّ طَلاّب الـهـوَى، فاتـكٍ ... قَدْ آثَـرَ الـدُّنـيا علَى دِينِـهِ
حتـى توافَـيْنَـا إلـى مَجْلِسٍ ... تضـحَـكُ ألْـوانُ رياحـينِـهِ
والـنـرجسُ الـغضُّ لدَى وَردِهِ ... والـوردُ قد حُفَّ بنـسـرينـهِ
وَجـيءَ بالـدّن على مرفَـعٍ ... وخـاتَـمُ الـعِـلْجِ على طينِـهِ
وافـتُـصِـدَ الأكـحـلُ من دَنّنـا ... فانـصَـاعَ في حُمْـرةِ تَلوْينِـهِ[4]
وطـافَ بالـكـأس لنـا شَادِنٌ ... يُدْمـيهِ مَسُّ الـكـف منْ لِينِـهِ
يكـادُ من إشـراق خَدّيهِ أنْ ... تُخْتَـطفَ الأبصـارُ من دُونِـهِ[5]
فلم نزلْ نُسْـقَـى، ونـلهُـو به ... ونَـأْخـذُ الـقَـصْـفَ بآيينِـهِ[6]

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١/٣٣١.

(٢) هذا الدير لم يذكره الشابشتي في «الديارات» ولا ياقوت في «معجم البلدان» ولا ابن فضل الله العمري في «مسالك الأبصار» كما لم يذكره أيضاً كي لسترنج في «بلدان الخلافة الشرقية».

(٣) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص٨٣.

(٤) افتصد الأكحل: شق. والأكحل عرق في الذراع. انصاع: انصب.

(٥) تختطف الأبصار: تستلب من شدة الوهج. (٦) الآيين: القانون (معربة).

حتى غدَا السّكْـرانُ من سُكْـرِهِ كَالـمـيْتِ في بَعْضِ أحـايِينِـهِ

أوّل ما يلقانا من هذا المجلس فتنة أبي نواس بالطبيعة فقد وافى الدير في يوم من أيامه المشهودة هو يوم عيد الشعانين الذي كان الاحتفال به أشبه بالمهرجانات والمواسم التي يخرج فيها الناس للنزهة والفرجه وكذلك كانوا يفعلون في غيره من الأديرة كدير الأعلى الذي اجتاز به المأمون فأقام فيه وكان مهرجان عظيم للرقص والغناء والشراب والطرب[1] ومثل ذلك ما يذكره «ابن فضل الله العمري» عن الاحتفال بهذا اليوم في دير ميخائيل[2] ودير الاسكون أيضاً[3] وكان الناس يتداعون إلى موسم الشعانين لما ييسره لهم الموسم حيث يشاهدون (من النساء والوصائف والولدان في الحلي والحلل)[4] ما لم يروا مثله قط فلم يزل الواحد منهم كما يحكي عن الثرواني (يعبث ويتعرض ويقبل ويعانق . . . فما أحد ينكر عليه فعله)[5].

أبو نواس إذن مثل غيره من طلّاب الهوى والشراب يتخذ من احتفال ديني مناسبة لمهرجان سعادة ومسرة قارناً الشراب بما يلزمه من نرجس غض وورد ونسرين. وما أن يرفع الخمّار العلج دنه المختوم على مرفقه حتى يبادر إلى بزله وكأنه يفتصد عرق الأكحل في جسم بشري فيتدفق الخمر كتدفق الدم، ويكون الساقي الشادن في نعومته وطراوته تمام الفتنة والسعادة.

هذا، وقد يصعب حصر الأماكن التي كانت تنعقد فيها مجالس أبي نواس الخمرية لأنها كثيرة ولأن حياة أبي نواس لم تكن إلّا جلسة خمرية متصلة ومع هذا فلا يفوتنا أن نسمي بعض الأماكن المشهورة التي وردت في خمرياته والتي كان يكثر من التردد عليها. منها «باطرنجي» في قوله:

- وبـاطُـرُ نْجَـى فالـقـفصُ ثم إلـى قُطربُّـل مَرْجَـعـي ومُـنْـقـلَبي[6]
- رأيت عِلْجـا بـبـاطـر نْجَـا لهـا تَوَجـىَّ فلم يئـن[7]

ومن الأماكن، أو المتنزهات التي تتردد كثيراً في شعره قطربل وقبة الفرك وكلواذا والصالحية والكرخ وطيرناباذ وقد أجملها في المقطوعة القصيرة التالية:

---

(١) الديارات للشابشتي ص١١٢، ١١٣.

(٢) المسالك والممالك ص٢٩٤.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣١٢.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٣١٥.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣١٥.

(٦) معجم البلدان (باطرنجي).

(٧) ديوان أبي نواس ص٣٤٦ ط. آصاف، وأخبار أبي نواس، لابن منظور ٢/٦٧، توجّى: من وجأه بالسكين أو بيده. وتوجأه: ضربه في أي موضع كان.

وقـائـلٍ هَلْ تريدُ الحجَّ ، قُلْتُ لهُ نعـم إذَا فَنِـيتْ لَذّاتُ بغْـدَاذِ[1]
أمـا وقـطْربُّـلٌ منهـا بحيثُ أرى فقـبـةُ الـفـرك من أكـنـافِ كِلْواذِ
فالـصّـالحيةُ فالكـرخُ التي جمعَتْ شُذَّاذَ بغْـدادَ ما هم لي بِشُـذّاذِ
فكيفَ بالحـج لي ما دمتُ منْغَمِساً في بيت قَوّادةٍ أو بيتِ نَبّـاذِ
وهبـكَ من قصفِ بغْـدادٍ تُخَلِّصُنِي كيفَ الـتـخـلُّصُ لي من طَيْرنَـابَـاذِ

واضح أن أبا نواس لم يكد يترك حانة أو حانوت خمر في بغداد وما حولها من أرباض وضواح وريف إلاّ ألمّ بها وجميعها أماكن مشهورة للهو والعبث، كانت مألفاً للشعراء والمجّان وربما عاد بعضها إلى عصور حضارية قديمة منها «بنا» في قول أبي نواس:

ما أبـعـدَ الـنُّـسـكَ من قلبٍ تقَسّـمَـهُ قُطْرُبُّـلٌ فقُـرَى «بَـنَّـى» فكْـلوَذَا[2]

ومنها «بوري» و «الجوسق» حيث يقول:

ولا تركـتُ الـمـدامَ بين قُرى الكرخِ فبُوري فالجوسقِ الخربِ[3]

ومنها «كنارك» وتقع قرب البصرة ويذكر «ياقوت» أن السلطان قد منع منه لأشياء كانت تجري فيه مما ينكرها والظاهر أن أبا نواس كان كثير التردد عليه مع إخوانه فقال:

أنـا بالـبَـصْـرةِ دَارِي وكُـنَـارَكُ مـزاري[4]
إن فيهـا ما تلذ الـعـين من طيب الـعُـقَـارِ
وغـنـاءٍ وزِنـاءٍ ولِـواطٍ وقـمـارِ

وأيضاً «القفص» وإلى هذا المتنزه عزم الأمير عيسى بن أبي جعفر المنصور[5] أبا نواس للإقامة أسبوعاً نظم على أثره خمريته المعروفة:

يَا طِيبنَـا بقـصـورِ الـقُـفْصِ مشـرقـةً فيهـا الـدَّسَـاكِـرُ والأَنْـهَـارُ تَطّرِدُ[6]

والـظاهـر أن «القفص» من المتنـزهـات التي كان أبـو نواس يألفها مع الأصدقاء. يذكر ابن

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٦٧ ط. الغزالي.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٦ ط. الغزالي، وط. آصاف ص٢٧٢.
(٣) معجم البلدان «بوري».
(٤) معجم البلدان (كنارك).
(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ٤/١.
(٦) ديوان أبي نواس ص٢٦٧ ط. آصاف.

منظور[1] أن آل نوبخت دعوا أبا نواس إلى القفص في أوّل يوم من أيام شعبان فلما علم بأن هلال شعبان لم ير بعد وكان هم بالرجوع، عاد فأمضى يومه بأوفر الحظوظ من اللهو:

لو شئتَ لم نَبْرحْ من القُفْصِ نأخذُها صفراءَ كالجصِّ
نَسرِقُ هذا اليومَ من شَهْرِنَا فَرُبَّما يُعْفَى عَن اللِّصِ

ومنها «ساباط» المدائن في الجانب الغربي من دجلة وكان بها سجن كسرى وفي «ساباط» قال أبو نواس قصيدة هي عند الجاحظ أفضل ما قال من شعر وهي:

ودارِ ندَامى عطّلُوها وأدْلَجُوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودَارِسُ[2]

وأيضاً مدينة «نصيبين» من ديار ربيعة بين دجلة والفرات وهي قديمة عظيمة كثيرة الأنهار والجنات والبساتين يذكرها أبو نواس بقوله:

طابت نصيبين بي يوماً وطبت بها يا ليت حظي من الدنيا نصيبين[3]

وبهذا العرض نكون قد تبينا أية أرجاء شاسعة من المتنزهات والحانات والأديرة كان أبو نواس يجوس خلالها باحثاً عن لذة الشراب وجمال المشاهدة ومتعة الحب. على أن لمجلس الخمر عناصره البشرية وأخرى المادية وقد تحدثنا عن الخمّار الذي مهدنا به للحديث عن مجلس الخمر وأن تكن مشاركته في المنادمة أو المجلس ليست مؤكدة دائماً نظراً لغلبة الصفة التجارية عليه في كثير من الأحيان، في حين يعتبر الساقي والنديم من أهم عناصر المجلس البشرية الجديرة بالاهتمام وتأتي بعدهما أدوات الخمر وأوعيتها وأوانيها التي أولاها أبو نواس عناية خاصة.

الساقي:

للسقي عند العرب تقاليد قديمة يروي «كشاجم» أن الرسول عليه الصلاة والسلام سقى غلاماً حديث السن كان عن يمينه قبل رجل من مشيخة أصحابه كان عن يساره قائلاً: الأيمن فالأيمن[4].

وفي إدارة الكأس على اليمين يقول عمرو بن كلثوم:

صَدَدْتِ الكأس عنّا أمَّ عمرٍو وكانَ الكَأْسُ مجْراهَا اليمينَا

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٤٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١/٣٩.

(٣) الروض المعطار ص٥٧٧.

(٤) أدب الندماء ولطائف الظرفاء، لكشاجم، ص٤٠.

ويقول الوليد بن يزيد:

أدرْ الـكـأسَ يمـيـنَـا لَا تُدرْهَـا لِيَسَـارِ[1]

وهذا يعني أنه كان للعرب منذ عهد مبكر تقاليد مرعية في آداب المائدة من شراب وطعام[2] من أجل هذا حظي ساقي الخمر منذ العصر الجاهلي باهتمام خاص من الشعراء[3] أكثر مما حظي الخمّار كذلك تأثر العرب بمن حولهم من الأمم ـ خاصة المعروفة منها بالإدمان على الخمر كالفرس ـ في آداب المنادمة وهكذا ألّف الجاحظ كتابه «التاج في أخلاق الملوك» الذي يدور حول التقاليد والآداب التي يجب مراعاتها عند الملوك من منادمة ومطاعمة وفيما يجب أن يتحلى به نديم الملك من صفات. ولهذا وجدنا للساقي في خمريات أبي نواس أهمية تفوق أهمية الخمّار لأنه يضطلع بالدور الأجمل دائماً والأدنى إلى النفوس. وصورته مشرقة تبعث على الانبساط والانشراح في حين ربما غلب على مهمة الخمّار التجارة والمكاس وكثيراً ما وصفه أبو نواس بالعلج والأشمط والكافر والبخيل. أما الساقي فدائماً أما غلام خنث أو جارية غلامية من الوصائف المقرطقات المتشبهات بالغلمان رشاقة وخفة كقول أبي نواس:

من كفِّ ذاتِ حِرٍ، في زيِّ ذي ذكَـرٍ لهـا مُحـبّـان لِوطـيٌّ وزنّـاءُ[4]

ومن شروطهم في الساقي أن يستأذن جلساءه في المزج وعدمه[5]. وهكذا تجاوزت علاقة أبي نواس بالساقي دور المهمة إلى غاية المتعة، وقد أمكننا رصد ثلاثة جوانب وقف عندها أبو نواس من علاقته بسقاة مجالس الخمر هي جانبُ العمل الرسمي، والجانب الجمالي حيث يمدنا أبو نواس بوصف دقيق شامل لزي الساقي وملابسه وخضابه وطريقة تصفيف شعره وسِنّه وجنسه ولونه وموطنه، والجانب الثالث هذه العلاقة الشاذة التي كانت تربطه بفئة السقاة، وهكذا حفلت خمريات أبي نواس بهذا الزخم الشعري سواء تدنى به إلى موجدة الرغبة الجامحة أم تسامى به إلى صدق الوجد الشعري ولقد بلغ من دقة وصفه لمهنة الساقي أن الرشيد طلب إلى كاتبه إسماعيل بن صبيح أن يلتمس له ساقية مليحة فطنة مقدودة شكلة حلوة... (تسقيني فإن الشرب من يد مثلها يطيب، فقلت: يا سيدي على الجهد فقال: اجعل في هذا قول العيار أمامك يريد أبا نواس)[6].

---

(١) ديوان الوليد بن يزيد ص٤٨.

(٢) فصول التماثيل ص٧٣.

(٣) ديوان الأعشى ص٤٧، ٥٩.

(٤) قطب السرور ص٣٨٣، ٣٧٩.

(٥) حلبة الكميت ص١٦١.

(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٨.

مِنْ كفِّ ساقيةٍ ناهيكَ ساقيةً ... في حُسْنِ قدٍّ وفي ظَرْفٍ وفي أدَبِ[2]
كانتْ لربِّ قيانٍ ذِي مُغَالبةٍ ... بالفسْقِ محترفٍ بالكَشْخِ مكتَسِبِ
فقد رأتْ ووعتْ عنهُنّ واختلفَتْ ... ما بينهُنّ ومن يَهْوِينَ بالكُتُبِ
حتى إذا ما غَلى ماءُ الشبابِ بهَا ... وأُفْعِمَتْ في تمامِ الجسْمِ والقَصَبِ
وُجِمَّشَتْ بخفيِّ اللَّحْظِ، فانْجَمَشَتْ ... وجرّتِ الوعْدَ بينَ الصِّدْقِ والكذبِ

واضح إذن أن مهمة الساقي مزدوجة، واجب يؤدي وخصوصية تجتني، مهارة مع حذق في المهنة المنوطة به، إلى جانب إمتاع ومؤانسة.

وهذا ساق آخر أحور العينين قد فاق البدر حسناً وبهاء فكأنه مسروق من جنان الخلد، ومع ذلك فلم يمنعه سحر جماله من النهوض بواجبه على خير وجه بهمة ونشاط، فما أن يفعل ذلك حتى يتحول إلى نديم مسعد[3]...

يسقِيكَها أَحْورُ العَيْنينِ ذو صُدُعٍ ... مُشمِّرٌ، بمزاجِ الراحِ قد حَذِقَا[3]
ما البدْرُ أحسنُ منه حينَ تنظرهُ ... سُبحانَ ربّي، لقد سوّاهُ إذْ خلقَا
لا شيءَ أحسنُ منه حين تبصرهُ ... كأنّه من جِنانِ الخُلْدِ قد سُرِقَا
ما زال يمزُجُها طوراً ويْشربُها ... طوراً إلَى أنْ رأيتُ السُّكرَ قد سَبَقَا
ثُمّ تغنّى وقد دارتْ بهامَتِهِ ... فما يكادُ يُبينُ القولَ إذ نطَقَا
إن الخليطَ أجدَّ البينَ فافترقَا ... وعُلِّقَ القَلْبُ من أسماءَ ما عَلِقَا

وفي مقطوعة أخرى لا يكاد أبو نواس يمر بمهمة الساقي منوهاً بمهارته وحذقه لصنعته حتى يشيد بكمال خلقة هذا الساقي معبراً عن سعادته لمجونه ممتدحاً جماله من انقطاع الردف، والحشا الهضيم، والحور في العينين مع الفتور ومن تضميخ شعره بالعطور وتصفيفه على هيئة العقرب على الصدغ مثلما كان يصنع الغلمان والجواري في ذلك العصر[4]:

يسقِيكَها مُخْتَلَقٌ ماجِنٌ ... مُعَوَّدٌ للسَّقْيِ نِحْرِيرُ[5]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧٢ ط. الغزالي.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٠.
(٣) صدع: جمع صديع وهو ثوب يلبس تحت الدرع.
(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/٢٣١، لآدم متز.
(٥) ديوان أبي نواس ص١٤ ط. الغزالي.

مُنْقَطِعُ الرِّدفِ هضيمُ الحَشَا أحْوَرُ في عينيه تَفْتيرُ
قد عقربتْ رَابِيةٌ صُدْغَهُ فالصُّدغُ بالعنبرِ مَطْرورُ

والظاهر أنه كان للساقي حكمه على المتنادمين في توزيع الخمر خاصة إذا كان يملك سلطان الجمال:

لا نستخفُ بسَاقِينا لِعزّتِهِ ولا يردُّ عليه حكمَهُ أحدُ[1]

ومن أجل هذا كان حكم الساقي على شراب خمره ومعاقريها حكماً غير مردود، فهو صاحب سلطانٍ على ندمانه لجماله أولاً الذي يسطو به على أولئك الندمان ولأن حكمه موصوف بالعدل:

يومَ الخميس أقمنا ساقياً حَكَماً نَرى حكومتَه عدْلاً وما زَعَما[1]

والعدل بالمفهوم النواسي هو الاستجابة لرغبته:

يا رب ليلٍ بت في نعمةٍ عند فتًى أبيضَ بسَّام[3]
بجنْبِ ساقٍ حسَنٍ وجهُهُ في السّقْيِ عَدْلٍ غيرِ ظَلاَّمِ
قد باتَ يسقينِيَ دِرْيَاقَةً سالتْ من الإبريقِ في الجامِ

ودائماً نحس بهذه الازدواجية في مهمة الساقي موزعة بين سحر الحب وفعل الخمر إلى الدرجة التي جعلت أبا نواس يشعر بالسعادة حين أومأ إليه الساقي بإشارة من عينيه ممنياً إياه بالوصال فكانت تلك الأمنية ألذ وأطيب من الخمر:

يدورُ بهَا ساقٍ أغنُّ ترى له على مُسْتَدارِ الأذنِ صُدغاً مُعَقْرَبَا[4]
سَقَاهُمْ ومنّانِي بعينيهِ مُنْيةً فكانتْ إلى قَلْبِي ألذَّ وأطْيَبَا

ولأبي نواس خصوصية من دون الندمان، إذ له نشوتان الخمر والحب ولغيره نشوة واحدة هي نشوة الخمر فإذا سكر الندمان مرة سكر هو مرتين:

تسقيكَ مْن عينها خَمْراً ومن يَدِهَا خَمْراً فما لكَ مْنْ سُكْرينِ منْ بُدِّ[5]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٨٠.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٢٥ ط. الغزالي.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٤٥، وط. آصاف ص٣٣٠.
(٤) ديوان أبي نواس ص٢٢ ط. الغزالي.
(٥) نفسه ص٢٧.

لي نشـوتـانِ ولـلنُّـدْمـانِ وَاحِـدَةٌ شيءٌ خُصِـصْـتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهـم وحَـدْي

أكثر من هذا وجدنا أبا نواس يقيم ما بين الساقي والخمر نوعاً من المنافسة الضمنية أيهما أقدر على الفوز باهتمام الشاعر وأقوى على إسعاده أنشوة الحب أم نشوة السكر وذلك حين يصرح بأنه نازع ساقيه خمراً تضيء كالبرق أو النار على ما يفيده لفظ نازع من خصوصية الاستعمال الأدبي الذي يرجح معنى على معنى وهكذا تجاوز الساقي مهمة السقي إلى المنادمة:

ومهفهفٍ يجـري الـوشـاحُ بخَصْرِهِ ويَضيـقُ عَنْـهُ دُمْـلُجٌ وَسُـوارُ[1]
نازعتـهُ صَهْبـاءَ تحْسـبُ أنَّهـا برْقٌ تألّـقَ ضوءهُ أوْ نَارُ

وربما وضع أبو نواس الخمر والساقي في كفتي ميزان من غير رجحان أحدهما على الأخرى:

ترى الكـأسَ في كَفّ المـديرِ كأنّهـا على راحَتَـيْهِ كوكبٌ الـدَّبَـرانِ[2]

والظاهر من هذا البيت ومن غيره من النصوص القديمة أن المدير غير الساقي وإن كان لا يظهر ذلك دائماً... حتى إذا جاء دور الساقي ظهرت مهمته المتميزة المثيرة للتساؤل والتفكير:

إذَا شجَّهـا السّـاقي بمـاءٍ رأيتَهَـا مُكَـلَّلَةَ الأعـلى بِطَوْقِ جُمَـانِ
وقـد دار ساقِـيهـا بهـا ذا قُراطِـقٍ تنـاطُ بأعْـلَى ساعـدٍ وبنـانِ
فيأخـذُ منهـا لونُـهُ بعضَ لونِهَـا فلونَـاهُـمـا في الـخـدِّ يَطَّرِدَانِ

وهكذا فاقتران الساقي والخمر في التعبير الشعري لا يقل عن اقترانهما في الواقع لأن أبا نواس يضاعف باقترانهما دلالة كل منهما على انفراد ودلالتهما مجتمعين إلى الدرجة التي فيها يرى الموت إذا ما أزال الساقي عنه الكأس لترتد إليه حياته إذا ردها عليه:

أمـوت إذا أزال الـكـأسَ عنِّـي وأحـيا من يديهِ إذَا سقَـانِـي[3]

وهو والكأس شمسان، أو لنقل أن الساقي يحمل شمسين واحدة بكفه هي كأس الخمر والأخرى بوجهه هي بهاؤه وحسنه.

شمسُ المُـدام بكفـهِ وبـوجهـهِ شَمْسُ الجمـالِ فبيننـا شمْسَـانِ[4]

---

(١) قطب السرور ص٣٨٦.

(٢) ديوان أبي نواس ص٨٥ ط. الغزالي، وص٣٤٣ ط. آصاف.

(٣) ديوان أبي نواس ص٣٤٢ ط. آصاف. (٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٤٤.

أبو نواس يضع أمامنا دائماً الساقي والخمر بنفس الدرجة من الاهتمام والتعامل فالغيبوبة التي تعتريه مثل غيبوبة سكرة الخمر، لأنه معتاد على الجمع بينهما، أو هو صاحب نشوتين، الحب والسكر:

وقائلٍ لي أفِقْ يوماً فقلتُ لَهُ ... من سَكْرةِ الحُبّ أو مِنْ سَكْرةِ الكأسِ[1]

لا أشربُ الرّاحَ إلّا مِنْ يدَيْ رَشَإٍ ... مُهَفْهفٍ كقضيبِ البَانِ مَيّاسِ

قُلْ لِلّذي لام فيهِ هلْ ترى كَلِفاً ... بِأملحِ النّاسِ إلّا أملحَ النّاسِ

وكما حاول أبو نواس في حديثه عن الخمّارين أن يقفنا على كل ما يتصل بأشخاصهم وأحوالهم كذلك يفعل الشيء نفسه مع السقاة فمنهم الفارسي من أبناء كسرى:

وساقٍ غريرِ الطرف والدلِّ فاتنٍ ... ربيبِ ملوكٍ كان والدُهم كسْرى[2]

أو أحد الغلمان المولدين من جنان الخلد:

لا شيءَ أحسن منه حين تبصرُه ... كأنه من جِنان الخلد قد سُرِقَا[3]

أو هو أشبه بأبناء الخلفاء في بهائه ورونقه:

يُديرُها هاشميُّ الطرف معتدلٌ ... أبهى إذا ما مشَى من طاقة الآسِ[4]

مع الأدب الجم وحسن المعاشرة:

مزج الكأسَ لي غزالٌ أديبٌ ... هاشميٌّ أصاب فيها المزاجَا[5]

وربما نسب الساقي إلى الأعاريب في تمنعه وتأبيه وسطوته:

كأنه كلما حاولتُ نائلَه ... ذُو نَخْوةٍ ناشىءٌ بينَ الأعاريبِ[6]

يسطُو عليَّ بحسنٍ لست أنكره ... يا مَنْ رأى حملاً يسطُو على ذيبِ

---

(١) قطب السرور ص٣٨٣.

(٢) ديوان أبي نواس ص١١٩ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٩٠.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٧٥.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٦٣.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٧٦.

وقد ينسبه إلى بني الأصفر:

وغـزالٍ من بَنـي الأَصْـفِـر معـصـوبٍ بتَـاجِ[1]
شخـصـهُ منّـى بعـيدٌ وهـواهُ كالمـنَـاجِـي

أو أنه عبادي نصراني:

يسـقـيكَـهـا من بني الـعبـادِ رشـأٌ منـتـسـبٌ عيدهُ إلـى الأحـدِ[2]
إذا بنَـى الـمـاءُ فوقـهـا حبَـبـاً صَـلَّـبَ فوق الـجـبـينِ بالـزَّبَـدِ

أو هو منتسب إلى أولاد يافث:

يسـعـى بهـا من وُلْـدِ يافـثَ أحـورٌ كقـضـيب بان فوق دِعْصٍ نقـاءِ[3]

وبهذا نكون قد وقفنا على عنصر من أهم عناصر مجلس أبي نواس الخمري بكل أبعاده الخمرية وهـو السـاقي خاصـة حين كان أبو نواس يقيم ما بينه وبين الخمر نوعاً من الموازنة أو المماثلة أو المنازعة يقف هو على الطرف الآخر ممسكاً بخيط الموازنة أو المقارنة بينهما.

الندمـان:

هم جماعة مجلس الخمر الذي سماه بعض الكُتّاب مجلس المدام[4] أو مجلس الشراب[5] وفي معنى النـديم قيل (إن العرب إنما سمت النديم نديماً لأنه يندم على فراقه. . .)[6]، (لوجود الراحة والأنس، وإما لأنه يندم على ما يتكلم به في حال سُكْره)[7].

ولما كان الندمان لا يجتمعون عادة إلا للاستكثار من اللذات أصبح لمجلس المدام أو الشراب صفات عرف بها، كما أصبح للمتنادمين شروط وقواعد لا بد لهم من مراعاتها لأن مجلس المدام (مجلس حرمة وداعية أنس ومسرح لبانة ومذادهم ومرتع لهو ومعهد سرور. . .)[8].

---

(١) ديوان أبي نواس ص٥٨.
(٢) ديوان أبي نواس ص٥٢ ط. الغزالي.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٧٠٤.
(٤) زهر الآداب ١/ ٤٤٩.
(٥) حلبة الكميت ص٢٩.
(٦) أدب الندماء ولطائف الظرفاء لكشاجم ص٣.
(٧) حلبة الكميت ص٢٥، وقطب السرور ص٢٨٥. (٧) زهر الآداب ١/ ٤٤٩.

ومن شروطه أن يجتمع (من الندمان مَنْ اتصف بالحذق واليقظة والأشعار والأداب والنوادر وأنواع المغنى والطرب فيكون للحديث نوبة وللغناء أخرى)[1]. ومعنى هذا أن النديم لا بد أن يكون واسع الاطلاع ملماً بجملة من الثقافات والمعارف تلحقه بالأدباء[2] ولكن هذه الشروط كما يظهر ليست عامة في جميع مجالس المدام إذ هناك فرق جوهري بين مجالس الشراب الإخوانية بندمائها من النظراء، وبين مجالس الشراب في حضرة الملوك أو الرؤساء كما يرسمها لنا الجاحظ[3] وغيره فمن آداب المنادمة في مجالس النظراء (إطراح التكلف وما يؤدي إلى حصر وضيق)[4] أو كما يقول ابن المعتز (المناصفة وترك التحفظ. . . وتركك الأدب عند مَنْ لا تحتشمه)[5] ولكن منادمة العظماء (شرائطها أكثر من منافعها. .)[6] وهي (شرائط صعبة ومسالك ضيقة ينقبض الخاطر عند سماعها فضلاً عن مشاهدتها وعيانها)[7]. من أجل هذا وجدنا أبا نواس لا يصبر على منادمة هؤلاء العظماء حتى (كان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده. .)[8].

وهكذا كان ندماء أبي نواس هم من طبقة النظراء لا من فئة العظماء، وفي هذا يقول أبو نواس:

لا خيرَ في العيش إلا بالمُدَامِ مع الـ ... أكْفاءِ في الوردِ والخِيريِّ والآسِ[9]
ومُسمعٍ يتغَنّى والكؤوسُ لها ... حثٌّ علينا بأخماسٍ وأسْداسِ

والأكفاء هم النظراء الذين كانت الألفة بينهم سائدة مع (قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة في الشراب والتغافل عن رد الجواب، وإدمان الرضا. . . وستر العيب، وحفظ الغيب)[10]. وفي هذا يقول أبو نواس منوهاً بتآلف ندمائه الذين يسميهم الفتيان مشيداً بتوادهم وتعاطفهم وتحابهم وكرم أخلاقهم وسلامة أعراضهم:

سقياً لمجلسِ فتيانٍ أُنادِمُهم ... ما في أديمِهِمْ وهْيٌ، ولا خَلَلُ[11]
هذا لذاك كما هذا وذاك لِذَا ... فالشملُ منتظمٌ والحبلُ متّصلُ

---

(١) حلبة الكميت ص٢٩.
(٢) ألحان الحان ص٢٥٣.
(٣) التاج في أخلاق الملوك ص٢٩ وما بعدها.
(٤) حلبة الكميت ص٢٦.
(٥) فصول التماثيل ص٧١.
(٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٧١.
(٧) حلبة الكميت ص٢٦.
(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٠٢.
(١) ديوان أبي نواس ص١٤٠ ط. الغزالي.
(١٠) زهر الآداب ١/٤٤٨، وقطب السرور ص٢٩٦.
(١١) ديوان أبي نواس ص٨٤ ط. الغزالي.

أو كما يقول «الراغب الأصبهاني»[1] طيب المدام بطيب الندام ويكاد أبو نواس يشرح هذه المقولة بقوله:

فالـراح طيبـة ولـيس تمـامهـا إلا بطيب خلائـق الـجـلاس[2]

وكقوله في مقطوعة أخرى مكرراً نفس المعاني:

نفسُ الـمـدامـة أطـيبُ الأنـفـاسِ أهـلاً بمَـنْ يحميـه عَنْ أنْجَـاسِ[3]
فإذا خلوتَ بشُـرْبَـهـا في مجـلسٍ فأكـفُـفْ لسـانَـكَ عن عيُوبِ النَّـاسِ
في الـكـأسِ مشْـغَـلةٌ وفـي لَذَّاتِـهَـا فاجـعـلْ حديثَـك كُلَّه في الـكَـاسِ
صفـو الـتّـعـاشـر في مُجَـانَبـةِ الأذَى وعـلَى الـلبـيبِ تخَـيُّرُ الـجُـلاَّسِ

يريد أبو نواس إذا ما انعقد مجلس الخمر أن لا يخوض الندمان في غير حديث الكأس لأن ذلك أجمع للذات وأبعد من المؤذيات، وإذن فعلى العاقل أن يحسن اختيار ندمائه ممن «يستر العيب ويحفظ الغيب».

هذا، وقد استطعنا من خلال استقرائنا لخمريات أبي نواس أن نقف على شروطه في مجلس ندامه وفي ندمائه، وجلهم من نظرائه، ولحرصه على التآلف والاستكثار من اللذات كما يقول «النواجي» مع ندمائه رأيناه يولي عدد الندمان في المجلس عناية خاصة يتفق إلى حد كبير مع ما نصت عليه كتب الأدب والحضارة في هذا الخصوص فقد كانوا يتحاشون الكثرة في عدد الندماء ولهم في هذا أقوال طريفة من ذلك تسميتهم الاثنين منشاراً فإن تربص أحدهما لبعض شأنه بقي الآخر واجماً منفرداً فتعرض له الفكر وليس كذلك أمر الثلاثة[4] وعن إسحق الموصلي: (الواحد غم والاثنان هَم وثلاثة قوام وأربعة تمام وخمسة زحام وسبعة جيش لهام)[5]. على أن «النواجي» يعتبر (أن هذه الأمور نسبية وخيالات وهمية فقد يوجد صفاء العيش مع الكثير ويفقد مع اليسير. . .)[6].

أما أبو نواس فقد كان ميّالاً إلى العدد القليل ولكن بشروط يشترطها فهو يرى أن ثلاثة ندمان بالإضافة إلى صاحب الدعوة والمغني أو ضارب العود والمجموع خمسة أدعى إلى الصفاء:

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/٦٩٣.

(٢) ديوان أبي نواس ص١٠٥ ط. الغزالي، و٢٩٥ ط. آصاف.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢٢١.

(٤) قطب السرور ص٣٠٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣١١.

(٦) حلبة الكميت ص٣٢.

ثلاثـةٌ في مجـلسٍ طيب وصـاحـبُ الـدّعـوةِ والضـاربُ
فإن تجـاوزتَ إلـى سَادسٍ أتـاكَ منـهـم شغـبٌ شاغـبُ

وفي نص آخر يصرِّح بأن خير الندامى إذا كانوا ستة أنفار خمسة إخوان وسادس يحسن الإنشاد مع شرط العقل والتآلف وأن لا يكون بينهم عربيد أو غير حافظ للغيب ولا كاتم للسر.

وخـيرُ الـنـدامى ستـةٌ من ذوي الحِجَى فخـمـسـةُ إخـوانٍ وآخـرُ مسْـمِـعُ
ويُحـمـد في الإخـوانِ مَنْ كان مُنْشِـداً بصـوتٍ يُغَـنّـيه ولا يتـمَـنَّـعُ
ولا يشـهـدَنّ الـشـربَ إلاّ عصـابـةٌ نفـوسُـهـمُ نفسٌ دَنَـوْا أَوْ تشَـيّعُـوا
إذا افـتـرقُـوا دامُـوا علي العَهْـدِ بينَهمْ ويُحْـمـدُ منِـهـم بِرّهـمُ أنْ تجَـمَّـعُـوا
ويُنـفـى لديهـم سفْـلةٌ ومـعـربِـدٌ ومُـعْـد لأسـرارِ الـنّـدامـى مُضَـيّعُ

فإذا لم يجد النديم المناسب جلس وحده إلى خمره يتناجيان، فهو الساقي وهو الحاسي لتكون أحسن سلوى له وليس هناك ما يحاكيها حسناً ولا ظرفاً:

خلوت بالـراح أُنَـاجـيهَـا آخـذُ منـهـا وَأُعاطِـيـهَـا[1]
نادمـتـهـا إذْ لم أجـدْ مُسْـعِـداً أرضـاه أنْ يَشْـرَكـنـي فِيهَـا
شربـتُـهـا صِرْفـاً على وجـهـهـا فكـنـتُ سَاقـيهـا وحَـاسِيهَـا
لم تنـظر الـعـينُ إلـى منـظرٍ في الـحُسْـن والـظَّرف يُدَانـيهـا
ما زلـتُ خوفَ الـعـينِ لمّـا بَدْت أنـفُـثُ في كَأْسـي وأرْقِـيهَـا

حقوق المنادمـة:

حاول أبو نواس أن يضع قانوناً للمنادمة والمتنادمين في صورة تشريعة أدبية سمى لها خمسة حقوق هي «حوق الكأس والندمان»:

حقـوق الكـأس والنّـدمـانِ خمسٌ فأوّلـهـا الـتـزيّنُ بالـوقـارِ[2]
وثـانـيهـا مُسَـامـحـةُ النّـدامى وكم حمتِ السمـاحـةُ من ذمـارِ
وثـالثهـا وإن كنتَ ابنَ خيرِ البَريّةِ مَحْـتـداً تركُ الـفـخـارِ

---

(١) ديوان أبي نواس ص١١٤ ط. الغزالي.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٢٠٩.

ورابعها فللنّدمان حَقٌّ سوى حقّ القرابة والجوارِ
إذا حدّثته فأكسُ الحديثَ الذي حدثته ثوبَ اختصارِ
وخامسها يُدِلّ به أخوه على كرمِ الطبيعة والنِّجَارِ
كلامُ الليل ينساهُ نهاراً فإن الذنبَ فيه للعُقَارِ
فإن حكّمتَ كأسك فيه فاحكم له بإقالةٍ عند العِثَارِ

يجل أبو نواس مجلس الندام عن التبذل والإسفاف فلا يليق به إلّا كل مَنْ تحلى بالوقار وكل سمح لا يفخر على إخوانه من الندماء حتى لو كان ابن خير الناس جميعاً لأن الندام قربى وجوار فلا يجوز لأحدٍ من المتنادمين التطاول والإطالة في الحديث بل يقتصر على النافع المفيد وأما خامس هذه المشروعة من حقوق الندام فستر العيب وحفظ الغيب لأن (مجلس المدام مجلس حرمة. . .)[1] وفي ذلك يقول أبو نواس متحرزاً من الإفشاء:

ولما شربْناها ودبَّ دَبِيبُهَا إلى مَوْضع الأسرارِ قلتُ لها قِفِي
مخافةَ أنْ يسطُو عليّ شعاعُهَا وتُظهرَ نُدَمائي على سِرّي الخَفِي

وكانوا يوصون بالإيجاز والاختصار في الأحاديث أثناء المنادمة مع المذاكرة في الآداب[2] وفي هذا يقول أبو نواس:

لا يطيبُ الشرابُ إلّا لقَوْمٍ جعلوا نُقْلهم عليه الوقَارَا
فهم يُسمعون صوتاً إذا مر وا تناشَدُوا الأشْعارَا
لا كقومٍ في ضَجّة وصِيَاح كنهيقِ الحُمَارِ لاقَى الحمَارا

وكذلك كان يزري بالخروج على آداب المنادمة، فقد كانت لذته أن يشرب مع نفر من الناس يكونون جمالاً في عينيه وغناء في اذنيه[3]، وهكذا ندد بجعفر بن يحيى البرمكي لأنه كان يعربد على ندمائه:

ما في النبيذ مع المعربد لَذّةٌ وابنُ لِيَحْيى لا طمّ بيذَيْنِ
ريحانهُ بدمِ الشّجاع ملطّخٌ وتحيةُ الندمانِ قلعُ العَيْنِ
لا تشربَنّ وجعفراً في مجلس أبداً ولا تحملْ دمَ الاخوينِ

---

(١) زهر الآداب ١/٤٤٩.

(٢) حلبة الكميت ص٣٠.

(٣) أبو نواس لعمر فروخ ص١٢١.

وقد وصف الأصمعي العربدة فقال: (العربدة حية تنفخ ولا تؤذي)[1] وفي علاج العربدة يوصي أبو نواس بتكرار الشرب على المعربد صرفاً غير ممزوجة حتى تقوم الخمر ما اعوجّ من سلوكه لأنها الداء والدواء فإذا غلبته سورتها وسده عضده فينام:

وإذا رام نديم عربـدَهْ فاقـرعنْ بالصَّـرفِ منـه كَبِـدَهْ[2]
كرّر الـخـمـرَ عليهِ بحـتـةً كي تُقـيمَ الـخـمـرُ منـه أودَهْ
ثم وسّـده إذا ما غلبـتْ سَوْرةُ الـراحِ عليهِ عضُـدَهْ

ولذلك فهو يوصي صاحبه أن لا ينادم السيء الخلق القليل العقل وإنما السيد من الرجال فإن المرء يُعرف بقرينه، كما يُعرف نديم المدام بنديمه:

ولا تجـعـلْ نديمَـك في شرابٍ سـخيـفَ العقـل أو دَنسَ الأديمِ[3]
ونـادمْ إن شربـتَ أخَـا معَـالٍ فإن الـشُّـربَ يجـمُـلُ بالقُـرومِ
وإن الـمـرء يصـحـبُ كلّ جيلٍ ويُنْسَبُ في المـدامِ إلى النّـديمِ

ولتشدده في اختيار ندمائه شاعت في خمرياته عبارات التمدح بل التبجح بهؤلاء الندمان فهم السادة الغر الميامين الذين لا تبطرهم النعمة ولا يقصرون عن كرم حتى كانوا زينة المجالس:

نازعـتـهـا فتـيةً غُرا غطارفـة ليسُـوا إذا امتُحِنُـوا يوماً بأنكاسِ[4]
لا يبـطَـرُون ولا يُخْـزُون نَادِيَهم كأنـهـم جثـثٌ من غيرِ أنْـفَـاسِ

أو هم من السادة ذوي البهاء والجمال كأنما قدت وجوههم من زهر أحمر:

نازعَـهـا سادةً غطارفـةً كأنـهـم من شَقـيقـةٍ شُقِـقُـوا[5]

أو ممن لا يسمع في مجلسهم فاحش القول وإنما الحديث المختار والمنطق الرائق:

في مجـلـس ليس فيه فاحـشـةٌ إلّا حديثٌ ومـنـطقٌ أنِـقُ[6]

أو من المنزهين عن الفاحشة الذين لا يعرفون العائبة ولا يتجبرون:

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/٦٩٨.
(٢) ديوان أبي نواس ص٩٦ ط. الغزالي.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٣٠ ط. آصاف.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٢٩٧.
(٥) ديوان أبي نواس ص٥٣ ط. الغزالي.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٠٧ ط. آصاف.

ندامـاي طول الـدهـرِ خُرسٌ عن الخنا وعـميٌ عن الـعـوراءِ نزهٌ عن الـكِبْـرِ[1]

وقد بلغ تمدحه بندمائه إلى درجة المداخلة ما بين شروطه في المنادمة وبين عصبيته القبلية كقوله:

وصـاحـبٍ زانَ كلَّ مُصْـطحَـب يُنْـمَـى إذا ما انـتـمى إلى اليَمَنِ[2]
أرْوعُ محـمـودةٌ خلائـقُـهُ يَبْـذُلُ في الخمـرِ أفضـلَ الثمَنِ
بدرُ ظلامٍ غياثُ مجْـدِبَـةٍ مَعْـدِنُ بذْلٍ يهْـتـزُّ للمِـنَـنِ
مهـذَّبٌ ماجـدٌ أخـو كَرمٍ قَرْمٌ يُرَجَّـى لحـادثِ الـزمَـنِ
دومـاً تراه قتـيلَ غانـيةٍ مُعْـمِـلَ كأسٍ بالـخَـلْعِ للرَّسَـنِ

وهذا نديم آخر يثني عليه بعصبيته فهو ينمي إلى سادات خزاعة فهو نديم صادق المودة جميل السجايا والشمائل جواد يبذل المال في سبيل لذاته أريحي لا يتوانى عن العطاء ولا يصغي للعواذل:

ونَـدمـان صدْقٍ من خُزَاعـةَ في الـذُّرا أغـرُ كضـوءِ الصّبح حُلو الشّمـائلِ[3]
يُهـين رقـابَ الـمـال في كل لذّة ولـيسَ بسـمّـاعٍ لقـولِ الـعـوَاذلِ
كريمٍ مطيرِ الـكـف يهـتـزُّ للنّـدى كمـا اهـتـز سيفٌ في أكـفِ الصَّياقِـلِ

وتوقيراً للخمر وإكباراً لها يحرم معاقرتها على السفيه:

ووقـر الـكـأسَ عن سفـيهٍ فإن حقـاً لهـا الـوقـارُ

كما يحظرها على العربيد الذي لا يعرف حقها واللئيم الذي لا يحسن أدب معاقرتها:

لا تمـكـنـني من الـعـربـيد يشـربـني ولا الـلئـيم الـذي إن شمـني قطبـاً[4]

وأيضاً على الذي ينفر منها ويلوم فيها مفضلاً عليها الماء مهانة وصغاراً:

واتـركَـنْ من لاَمَ فيهـا وأبـى إلاّ نِفَـارَا[5]
يشـربُ الـمـاءَ مكـانَ الـراح رغْـمـاً وصَـغَـارا

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٢٣ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٧ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٨٥ ط. الغزالي.

(٤) ديوان أبي نواس ص٩٢ ط. الغزالي.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٢٢.

وهكذا حرمها على مَنْ يدعي «أبا أيوب» لأنه ابتاع بالخمر نبيذاً فكان هو الخاسر خسارة من باع فرساً أصيلاً بحمار:

واصـرفـنـهـا عن أبـي أيُّـ ـوب إذ تَاه فَخَـارَا
باع راحـا بنـبـيذٍ هكـذا بيعـاً خَسـارَا
مثـلَ مبتـاعٍ بطِرْفٍ سبـق الـخـيلَ حمـارَا

والمحصلة الأخيرة أن ندمان أبي نواس من خير العباد، ومن الأشراف أبناء الأشراف، والأجواد أبناء الأجواد:

واخـتـرتُ أخـوةَ صدقٍ من خير هذي الـعـبـادِ[1]
شريفٌ ابـنُ شريفٍ جَوادٌ ابـنُ جوَادِ

العلاقة بين المتنادمين:

حاول أبو نواس من خلال خمرياته أن يكشف لنا ما كان يربط بين المتنادمين من علاقة حميمة تجاوز بها الحدود الشكلية والرواسم والتقاليد إلى سبر الأغوار والتعمق في قرارة النفس البشرية. وأول شيء أن أبا نواس جعل المنادمة تعادل النسب أو القرابة في ربط عرى المودة والألفة بين المتنادمين، فعلى أبناء الصهباء الذين رضعوا من درتها من الحقوق ما على أبناء الأم الواحدة من ستر العيب وحفظ الغيب والصدق في المعاملة:

والـقـومُ اخـوانُ صدق بينـهـم نسـبٌ من الـمـودة ما يرقَـى له نَسَـبُ[2]
تراضـعـوا دِرَّةَ الـصـهـبـاءِ بينَـهُـم وأوجَـبُـوا لنـديم الـكـأس ما يجـبُ
لا يحـفـظون على الـسـكـرانِ زلَّتَـهُ ولا يَرِيبُـك من أخـلاقـهـم رِيَبُ

وهكذا كانت المدام نسباً:

وأن الـمـرء يصـحـب كل جيل وينـسـب في الـمـدام إلـى الـنـديم[3]

ولهذا كان النديم رؤوفاً بنديمه، وينبغي للنديم كما يقول «النواجي» (أن يكون أطوع للجماعة من فعلهم وأتبع لهم من ظلهم)[4]. وكذلك كانت استجابة أبي نواس لندمائه فإذا أرادوه على السكر

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٥٤ ط. الغزالي.
(٢) ديوان أبي نواس ص١٩٢ ط. الغزالي.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٤٤.
(٤) حلبة الكميت ص٣٩.

سعى إليهم دون تردد ودون أن تلحقه ملامة.

ولستُ بمستعفٍ من السكرِ صَاحباً ... إذا كان يَهْوى أن أصيرَ إلى السُّكْرِ
ولكنّني أسعى إلى السُّكْرِ واثقاً ... بما فيه إن اخطأتُ من سَعةِ الصّدرِ

وأبو نواس دائم البر بندمانه حريص على راحتهم أثناء الشراب فيما يعود عليهم بالاستكثار من اللذات فإذا بلغ السُّكْر بأحد الندمان مبلغاً عظيماً وأثقل النعاس جفونه فإنه لا يثقل عليه بالشراب ولكنه يصرف الكأس عنه بإشارة من حاجبيه حتى إذا عاودته الرغبة فيها ناوله إياها:

ولستُ بقائلٍ لنديم صدق ... وقد أخذ النعاس بمقلتيهِ[1]
تناولْها والا لم أذُقْهَا ... فيأخذُها وقد ثَقُلَتْ عليهِ
ولكنّي أديرُ الكأسَ عنهُ ... وأصرفُها بغمزةِ حَاجبَيْهِ
وأحبسها إلى أن يَشْتهيهَا ... وآخذُها برفقٍ من يدَيْهِ
فهذا ما حييتُ له وإنّي ... أبرُّ لمثلهِ من وَالدَيْهِ

فإذا لحق بأحد أصحابه داء الخمار أسعفه بالأساليب الخمرية المعهودة، وهي أن الخمر داء للخمار، وهذا من الخدع التي اختدع بها أكثر الناس[2] لأن الخمار أشد من السُّكْر[3] وكذلك كان دأبه ودأب نديمه طيلة الليل، كلما زاده أبو نواس كأساً طلب النديم أخرى حتى خرّ صريعاً ولا علم له إن كان على أرض أم كان على وساد:

وندمان ترادفَهُ خمارٌ ... فأورثَ في أنامله ارتعادَا[4]
فليس بمستقلٍّ الكأس ما لم ... تكن يُسْراه لليُمنى عِمادَا
رفعت له يدي وهْنَا بكأسٍ ... بها منها تزيّدَ فاستعادَا
وقال ألستَ متبعَها بأُخْرى ... تُوَقّرني فإنّ بيَ ازديَادَا
فقلت بلَى وبأخرياتٍ ... على أني سأجعَلُها جيادَا
فذلك دأبه ليلِي ودأبي ... إذا ما زدته منها استزَادَا
إلى أن خَرّ ما يدري أأَرْضاً ... توسَدّ عند ذلك أم وِسَادَا

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٢٠ ط. الغزالي.
(٢) قطب السرور ص٤٢٦.
(٣) فصول التماثيل ص١٠٥.
(٤) ديوان أبي نواس ص٨١ ط. الغزالي.

وتتكرر المواقف الخمرية ما بين أبي نواس وندمائه ليكشف كل موقف منها عن علاقة جديدة حميمة تربطه بندمائه فهذا نديم يصفه بأنه من علية القوم دعاه أبو نواس إلى تناول كأسه لينتهيا كالأخوين وقد هاجهما الطرب، أبو نواس يجر زقاً والنديم يجر رجلاً خذلها السُّكْر فمرة تستقيم ومرة تحيد عن القصد:

ومتصل بأسباب المعالي ... له في كلِ مكرمة قديم[1]
رفعت له النداء بقمْ فخذها ... وقد أخذت مطالعها النجوم
بتفدية تذال النفس فيها ... وتمتهن الخؤولة والعموم
فقام وقمت من أخوين هاجا ... على طرب وليلهما بهيم
أجُرُّ الزق وهو يجرُّ رجلاً ... يجور بها النعاس ويستقيم

ومن مظاهر المشاركة الوجدانية الحميمة بين أبي نواس وندمانه حال النديم الذي يصفه بـ «الموفي بذمته» الذي يطلب إلى أبي نواس أن يسقيه ويشرب معه ثم يغنّي... وهي مراحل ثلاث أولها طلب حاجة وثانيها مشاركة، وثالثها مواساة: حتى إذا ثنى ثم ثلث عاد ورد براحة يده الراح..!

نبّهتُ نَدماني الموفى بذمّتِهِ ... من بعد إتعابِ كاساتٍ وأقداحِ[2]
فقال: هاتِ اسْقني واشربْ وغنِّ لنا ... «يا دار شعثاء بالقاعين فالسّاحِ»
فما حسَا ثانياً أو بعض ثالثةٍ ... حتى استدار ورد الرَّاحَ بالرَّاحِ

فأبو نواس مع نديمه دائماً، سواء في سرائه أم في ضرائه، في سُكْره أم في صحوه، قادراً وعاجزاً. وهذا نديم منعم حيي حتى أن كلامه بالرمز والإشارة يتقدم منه أبو نواس وقد أثقل النعاس جفونه فيحركه في رأفة وتدليل ناعتاً إياه بسيد الأصدقاء الندمان، عارضاً عليه شربة من خمر تزيح الهم عن صدره وتسمو به إلى العلياء فأجابه بصوت خفيض وقد أخذت تباشير الصباح تلوح في الأفق، إني أعرف قصدك ولكن سطوة الصهباء أعجزتني عن استعفائك من الشراب:

ومُتَرّف عقلَ الحياءُ لسانَهُ ... فكلامُه بالوحْي والإيمَاءِ[3]
لما نظرتُ إلى الكَرى في عَينهِ ... قَدْ عقّد الجفنيْنِ بالإغفاءِ

---

(١) ديوان أبي نواس ص٥٥.

(٢) نفسه ص١٠٩ ط. الغزالي.

(٣) نفسه ص٢٢٣.

حرّكتُه بيدي وقلتُ له انتبهْ ... يا سيِّدَ الخُلطَاءِ والنُّدمَاءِ
حتى أزيحَ الهمَّ عنكَ بشربَةٍ ... تسْمُو بصاحبها إلى العَلْيَاءِ
فأجابني والسُّكْر يَخْفِضُ صوتَهُ ... والصبحُ يدفع في قفَا الظَّلْمَاءِ
إني لأفهمُ ما تقولُ وإنّمَا ... رد التّعافِي سَوْرةُ الصَّهباءِ

على أن ذلك لا يعني أن جميع المتنادمين سواء مع الخمر وإن كان ينتظمهم مجلس خمري واحد ومشاركة مادية في المباني، ووجدانية في المشاعر لكن يبقى لكل نديم خصوصية، ففي الواقعة الخمرية يكون منهم السعيد لأن الخمر أزالت عنه همومه الثقيلة والبعض الأخر أصبح أسيراً للخمر، وغيره عاودته ذكرياته الحزينة ففاضت دموعه قطرات كحبات المرجان تنحدر على الصدر. هنا يبدو أبو نواس وكأنه الموكل بشؤون المتنادمين فيمد لهم يد العون والمساعدة لمواجهة ما هم فيه من سورة الحب وجنونه لأن الحب لا يولع إلاّ بالأحرار من الرجال. . . وكذلك كانت تلك الأيام لأبي نواس بين ندمانه أيام غضارة ونعيم عَيَش فيا ليت أنها تعود وتبقى إلى يوم الحشر:

فبعْضُ النَّدامَى في سُرورٍ وغبطةٍ ... وبعضُ النَّدامى للمُدامَةِ في أَسْرِ[1]
وبعضٌ بكى بعضاً ففاضَتْ دموعُهُ ... على الخدِ كالمرْجانِ سال إلى النحْرِ
فساعدتُهم علماً بما يُورثُ الهوَى ... وأن جُنونَ الحبِّ يولَعُ بالحُرِّ
فسقياً لأيامٍ مضَتْ وهي غَضّةٌ ... ألا ليتَها عادتْ ودامتْ إلى الحشْرِ

- أوعية الخمر وأوانيها:

حفلت خمريات أبي نواس بأسماء الكثير من أدوات الخمر وأوعيتها وأوانيها من مختلف الأشكال والأحجام والأنواع مع اختلاف أوجه الاستعمال أيضاً. هذا، وبعد استقصاء أحسبه شاملاً لمعظم إن لم يكن لجميع ما ورد في خمريات شاعرنا من أسماء هذه الأدوات أمكنني قسمتها إلى ثلاثة أنواع متمايزة أولها نوع كانت تختزن فيه الخمر وتحفظ للاختمار مدداً متفاوته حتى أن الخمر سميت خمراً لأنها خمدت في أنائها، وعقاراً لأنها عاقرت الدن[2] ونوع آخر كانت الخمر تسكب فيه لتصفو ويرسب كدرها قبل شربها[3] والنوع الثالث هو الذي كانت تسكب أو تصب فيه الخمر ومنه كان الندمان يحتسون الخمر ويشربونها مباشرة.

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٢٣ ط. الغزالي.

(٢) فصول التماثيل لابن المعتز ص٤٨.

(٣) ألحان الحان لعبدالرحمن صدقي ص٢٤٦.

أما النوع الأول من هذه الأدوات فمن أشهر ما جاء منها في شعر أبي نواس الدنان والزقاق. والدن نوع من الجرار الفخارية ورد منها في خمريات أبي نواس أسماء الدنان والحباب والخوابي والرواقيد. ففي صيغة المفرد للدنان يقول الشاعر:

أقامت حقبةً في قعْرِ دَنٍّ تفور وما يُحَسُّ لها لهيبُ[1]

وبصيغة الجمع يقول:

وتناساها الجديدانِ حَتّى هي أنصافُ شطورِ الدِّنَانِ[2]

وربما شبهها وقد وضعت في صفوف بأشياخ معممة:

أقامتْ في الدنان ولم تَضِرْهَا ولكن زانها طولُ المُقَامِ[3]
أُشَبِّهَها وقد صُفّت صفوفاً بأشياخٍ مُعَمَّمةٍ قيامِ

وقد يكتفي بالصفة من دون الموصوف فالدن هو المسند لأنه بغير قوائم:

فشَكّ بأشفاءٍ له بْطنَ مُسْنَد فسالتْ تحاكي في تلألؤها البَدْرَا[4]

وهو المدمج والمختوم أي المحاط بالليف والقار، والمقفل فوه بالطين وغيره:

عتّقتْها الأنباطُ عشراً فعشراً ثم عشراً في مُدْمَجٍ مخْتُومِ[5]

وهو الأجوف المقير باطنه بالزفت:

من قعر أجوفَ ذي ساقٍ بلا قدَمِ نِيطَتْ بِدَنٍّ عظيمِ البْطن هَدّارِ[6]
مما زَجُ الخَلْق من زِفْتٍ بطانَتُهُ والظّهْرُ من فوقِهِ بنيانُ فخّارِ

أما الحباب، ومفردها حب فهي أكبر من الدنان في الحجم ولم يرد منها مفرد في خمريات أبي نواس:

أتْوا بها في الحِبابِ يخفرُها مَشْيُ هُوَينى ما إنْ بهِ نَزَقُ[7]

---

(١) ديوان أبي نواس ص١١ ط. الغزالي.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٩.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٩٣.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٧٥.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٤٩.
(٧) المصدر السابق نفسه ص ٥٣.

أما الرواقيد جمع راقود فهي أصغر من الدنان[1] وقيل أكبر[2] وفيها يقول أبو نواس واصفاً إياها بلفظ مزفتة:

استودعوها رواقيداً مزفّتةً ... من أغبرٍ قاتمٍ منها وغَبْراءِ[3]

وكذلك الخوابي نوع عظيم من الدنان وقد وردت بصيغة المفرد والجمع موصوفة وغير موصوفة:

لا يطرقُ الأسماعَ في أرجائه ... إلّا ترنّمُ ألْسُنِ العِيدَانِ[4]

أو صوتُ تصفيقِ الجليسِ تطرُّباً ... وبكاءُ خابيةٍ وضِحْكُ قَنانِي

و: فضُمّنَ صفوُ ما يجنونَ منها ... خوابيَ كالرِّجالِ مُقَيّراتِ[5]

أما الزقاق ومفردها زق وتصنع من جلود الغنم فقد كثر وصفها بالشاصيات أي الشائلات أو المرتفعات وقد جاء اللفظ مفرداً وجمعاً موصوفاً أو غير موصوف كقوله:

- وجرَّ زقاً كأنه رجلُ ... مفصّلُ الساعدين من حامِ[6]
- مساحبُ من جرّ الزقاقِ على الثرى ... وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٌّ ويابسُ[7]
- إذا نزفُوا زقاً أقمتُ مكانه ... من الشّاصياتِ السودِ محزوزةَ الظهرِ[8]

ومن الصفات التي أطلقها أبو نواس على الزقاق أيضاً صفة «اسحم مسود» و«حبشان» ليدل على شدة سوادها في قوله:

وبنتِ كرمٍ سفكناها بدرهمنا ... من بطنِ أسحمَ مُسْوَدٍ وما سُفِكا[9]

كأنَّ أكرعَه أيْدٍ مُقَطّعةٌ ... لا يرتجي قَوَداً منها ولا دَرَكا

ومن الزقاق الأداوَى ومفردها أداوة وهي زقاق صغيرة كانت تتخذ من الجلد أيضاً وفيها يقول أبو نواس بصيغة الجمع:

---

(١) ألحان الحان لعبد الرحمن صدقي ص٢١٤.

(٢) ديوان أبي نواس ص٣٥ «الهامش» ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٥.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٩٥.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٢١٠.

(٦) ديوان أبي نواس ص٢٤ ط. الغزالي.

(٧) ديوان أبي نواس ص٣٧ ط. الغزالي.

(٨) المصدر السابق نفسه ص ١٢٣.

(٩) المصدر السابق نفسه ص ٨٩.

فقـالـت من الـطُّراقُ قلنـا عصـابـةٌ خفـافُ الأداوَى يُبْـتـغَـى لهـمُ خَمْـرُ[1]

أما النوع الثاني من أدوات الخمر وهي التي كانت تسكب فيها الخمر لتصفو ويرسب كدرها قبل شربها فقد سمّى لنا أبو نواس جملة صالحة منها مثل:

الدوارق، والناجود، والبواطي، والقارورة، والقناني، والأباريق.

وربما كانت الأباريق ومفردها إبريق أكثرها دوراناً في شعره كقوله:

قامـت بابـريقـهـا والـلـيلُ معـتـكـرٌ فلاح من وجـهِـهَـا في الـبـيتِ لألاءُ[2]

وها هو يصف الإبريق مرة بأنه منتصب كالواقف على قدميه وأخرى جاثياً باركاً:

إبـريقُـنـا مُنْـتـصِـبٌ تارةً وتـارة مُبْـتَـرِكٌ جَاثِ[3]

كذلك يمثله عند انصباب الخمر منه بشيخ يزمزم في صلاته وقد شرق بصوته إما لعلة الكبر أو لخلافه:

كأنّ إبـريقَـنَـا إذا صُفـقَـتْ في الـكـأسِ شيخٌ مزمـزمٌ شَرِقُ[4]

كما شبه نفس الصوت بالفأفأة وهي من عيوب النطق بترديد حرف الفاء:

كأن قرقـرةَ الإبـريق بينـهَـم رجْـعُ الـمـزامـيرِ أو ترجـيعُ فَأْفَـاءِ[5]

على أن أجمل ما صوّر به الإبريق وهو جاثم أمامه بالظبي المستشرف من فوق مرتفع وهو مذعور خوفاً من صائد يترصده فمد عنقه:

كأنّ أبـريقَـنَـا ظبـيٌ على شَرَفٍ قد مدَّ منـهُ لخـوفِ الـقَـانصِ العُنقَـا[6]

و: كأنّ أبـريقَـهـم ظبـيٌ على شرَفٍ مُفَـدَّمٌ من شبَـا الـكـتـانِ مكـمـومُ[7]

هذا، ولا ينسى أبو نواس أن ينص على نوع المادة المصنوعة منها تلك الأباريق مع التنويه

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٨.
(٢) المصدر السابق نفسه ص٦.
(٣) نفسه ص٢٥ ط. الغزالي.
(٤) نفسه ص٥٤.
(٥) نفسه ص٢٣٦ ط. آصاف.
(٦) نفسه ص٩٠.
(٧) فصول التماثيل ص٤٩.

بجمالها فالبعض منها أباريق فضية حسان تشبه ظباء القفار أو طيور الكراكي عند فزعها من الصقور:

في أباريقَ من لُجَينٍ حسانٍ كظباء سكَنّ عرضَ القفارِ[1]
أو كراكٍ ذُعِرْنَ من صوتِ صقْرٍ مُفْزَعَاتٍ شواخصِ الأبصارِ

ومن الأباريق ما هو مصنوع من الزجاج:

نحلبُ الرّاح صُراحاً في أباريقِ الزجاجِ[2]

على أن شكل الإبريق ظل هو المستحوذ على خياله من ذلك تصويره للأباريق وهي تفرغ ما في أجوافها من خمر مائلة وكأنها ساجدة بطائر بنات الماء وهي مقعية في فزع وذعر حذار أن ينقض عليها الصقر:

في أباريقَ سُجّدٍ كبناتِ الماءِ اقعينَ من حِذارِ الصقورِ[3]

أو كقوله:

ثم صارتْ إلى أَغَنَّ كطيرِ الـ ـماءِ إبريقِ فضّةٍ مَفْدُومِ[4]

أغن صفة لمحذوف تقديره ظبي يصف به الإبريق. ومفدوم أي قد وضع عليه الفدام أي المصفاة.

أما بقية الأدوات من دوارق وقوارير وقناني ونواجيد وبواط فقليلة الدوران نسبياً في شعر أبي نواس إذا ما قيست بكثرة دوران الأباريق.

وفي الدواريق مجردة من أية إضافة يقول أبو نواس:

فقلت لها كَيْلاً حسابا مُقَوّماً دواريقَ خمرٍ ما نقصْنَ وما زدْنَا[5]

وكقوله أيضاً بلفظ دوارق:

فلما جرتْ فيهِ تغنّى وقال لِي بِسُكْرِ الآهاتِ اسْقِنَا بالدَّوارقِ[6]

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٨٣ ط. الغزالي.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٨.
(٣) ديوان أبي نواس ص٢٩١ ط. آصاف.
(٤) ديوان أبي نواس ص١٧٦ ط. الغزالي.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٩.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٧١.

وفي الناجود، بالمفرد، يقول:

أخـذتْ من كُلِّ شيءٍ لونَـهـا فهـي في ناجـودهـا قوسُ قُزَحْ[1]

والوصف هنا «قوس قزح» منصرف إلى الخمر لا إلى الأنية.

ومثل ذلك ما قاله في القارورة:

وَمَـزنّـرٍ قد صبَّ في قارورة ريق السحـابِ على النّجيعِ القَـانِي[2]

• فريق السحاب هو الماء، والنجيع القاني هو الخمر وفي القناني نراه يتوسع في معانيه وخياله عن طريق المزاوجة بين الخابية والقناني:

لا يطرقُ الأسـمـاعَ في أرجـائـهِ إلّا ترنّـمُ الـسُـن الـعـيدانِ[3]
أو صوتُ تصـفـيقِ الـجـليسِ تطربـاً وبُـكَـاءُ خابـيةٍ وضـحْـكُ قنَـانِـي

وفي نص آخر يصف القناني بالتلألؤ وقد لفَ على أفواهها القلاد وهو خيط من النحاس الأصفر:

فسَـلّ منْـهَـا بزَالاً فسـال مثْـلُ الـفِـصـادِ[4]
إلـى قنـانٍ تَلَالاَ مُدَمْـلـجَـاتِ الـقـلادِ

وهذه القناني فرعونية الصنع، يقول في حوار طويل مع الخمر:

قالت «فبيتي فما استحسنُ الخشبا»[5]

قلت الـقـنَـانِـيُّ والأقـداحُ ولّـدهـا فرعـونُ قالـت لقـد هَيّجْـتَ لي طربَـا

أما البواطي فالغالب مجيئها مجردة من أية إضافة مفردة ومجموعة كقوله:

حتـى إذا سُلسِـلَتْ في قعـر باطـيةٍ أغنـاكَ لألأؤهـا عن ضَوءِ مِصْبَـاحِ[6]
وفـي بيتـه زقٌ ودَنٌ ودورقٌ وبـاطـية تُروِي الـفـتَـى وتُـنـيمُ[7]

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٠٧.

(٢) المصدر السابق نفسه ص١٩٥.

(٣) نفسه ونفس الصفحة.

(٤) نفسه ص١٥٤.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٩١.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٠٨.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ١٣١.

من كُمَيْتٍ كسَنى البرقِ أضاءتْ في البواطِي[1]

أما النوع الثالث والأخير من أواني الخمر وأدواتها من كؤوس وطاسات وزجاجات فقد كان لها الحظوة الكبرى من اهتمام الشاعر وعنايته ويقف الكأس أو القدح[2] أو الجام على رأسها فمن (شرب فيه فكأنما شرب في إناء وماء وهواء وضياء)[3].

وقد تجاوزت المرات التي جاء فيها ذكر الكأس في خمريات أبي نواس المئة وعشراً كان فيها الكأس مركز الإثارة في مجالس أبي نواس الخمرية وعينه ترقب الساقي في غدوه ورواحه وعلى راحته كأس الخمر بما يزدان به من صور ورسوم لتنطبع في ذهن أبي نواس مستثيرة صوراً ورسوماً أخرى فإذا كانت الخمر ياقوتة فالكأس لؤلؤة والساقية فاتنة تخلب الألباب:

فالخمر ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ من كفِّ جاريةٍ ممشوقَةِ القَدِّ[4]

وقد تصبح الكأس ياقوتة بدلاً من الخمر:

فالخمرُ فينا كالبِجَادِي حُمْرةً والكأسُ من ياقُوتةٍ بيضاءِ[5]

والحق أن الكؤوس كانت في خمريات أبي نواس مسرحاً لعمليات خمرية نادرة. ومع التدقيق في ما كان يحدث في مجلس الخمر خيل لأبي نواس أن الكؤوس أجرام سماوية تجري في فلكها، وأيدي الندمان هي البروج التي تنتقل فيها الكؤوس «الأجرام السماوية» من يد إلى يد أو من برج إلى برج.

في كؤوسٍ كأنهُنَّ نجومٌ جَارِياتٌ بروجُها أيْدِينَا[6]

بل إن هذه الكؤوس ترسم في دورانها على الشرب من الندمان فلكاً شبيهاً بالفلك الذي تدور فيه النجوم مسرعة أو بطيئة، فإذا أجرى الساقي «القطب» طاساته «نجومه» أشرقت علينا وضّاءة باعثة فينا الحياة، وإذا أمسكها عن الجريان غارت وغابت فحل بنا الموت:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٨١.

(٢) الفرق بين الكأس والقدح إنه إذا كان ملآن سُمي كأساً وإذا كان فارغاً سُمي قدحاً.

(٣) حلبة الكميت ص١٦٧.

(٤) ديوان أبي نواس ص٢٧ ط. الغزالي.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٧٠٤.

(٦) نفسه ص٣٠ ط. الغزالي.

إذا الـطاسـاتُ كَرَّتْـهَـا علينـا تكَـوَّنَ بيْنَـنَـا فلكٌ يدورُ[1]
تسـيرُ نجـومُـه عجَـلاً وريْثـاً مُشَـرَّقـة وتـاراتٍ تغـورُ
إذا لم يجْـرهـنّ الـقـطبُ مِتْنَـا وفـي دوراتـهـن لنـا نُشُـورُ

وعن الخمر بعد مغادرتها لونها المقير وهي في يد الساقي يدور بها على الندمان يجعل أبو نواس الكأس إزاراً لها تأتزر به فما أن مزجت بالماء حتى تكونت على السطح حلقات متتالية من الحباب حلقة تلو حلقة كأنها حبات من الدر الكبير والصغير فأنّى نظرت إليها العين بدت كأحرف الواو الصغيرة حتى إذا احتساها الندمان أجدتهم حمرة في العيون:

لم تزلْ في قَعْـرِدَنٍّ مُشْـعَـرٍ زِفْـتـاً وقَـارَا[2]
ثم شُجَّـتْ فأدارتْ فوقـهـا طَوقـاً فَدَارَا
كاقـتـران الـدر بالـدُّ رِ صغِـاراً وكِـبَـارَا
فإذا ما اعـتـرضَـتْـهُ الـعـيُن من حيثُ استـدَارَا
خِلْتَـه في جنـبـاتِ الـكـأس واواتٍ صغَـارَا
من يدَيْ ساقٍ ظريفٍ كُسِـيَ الـحُـسْـنَ شِعَـارَا
يَقْـتـري الـقـومَ بكـأسٍ تَلْبسُ الـخـمـر إزَارَا
فإذا ما سَلْسـلَوُهـا أَحْـذَتِ الـعـينَ احْـمِـرَارَا

إن مسرح العمليات يبقى متصل التوليد للصور والتماثيل ما دامت الخمر تعاطي الكأس حتى لكأنها نار متقدة في داخله:

يا طيبـنـا بقُـصـور الـقُـفْص مُشْـرِفـةً فيهـا الـدساكـرُ والأنـهـارُ تطّردُ[3]
لمـا أخـذْنـا بهَـا الـصَّـهْـبَـاءَ صافيةً كأنـهـا الـنّـارُ وسْطَ الـكـأسِ تَتّـقِـدُ

حتى إذا مزج القوم خمرهم بالماء لكسر حدتها تولد الزبد ضاحكاً وهو يكلل الكأس:

والأربـعـاء كسْـرنـا حدّ سَوْرتـهـا والكـأسُ يضحـكُ في تِيجَـانِهَـا الـزّبدُ[4]

وأما الكوب فإنه يضحك لعلة أخرى هي أنه عند إفراغ ما فيه من خمر يكون في حالة أشبه

---

(١) ديوان أبي نواس ص٤٥٥ ط. الغزالي.
(٢) ديوان أبي نواس ص٦٥ ط. الغزالي.
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٧٩.
(٤) نفسه ونفس الصفحة.

بالركوع مع إحداث صوت مثل الفأفأة ولهذا يبدو وكأنه يضحك:

والكوبُ يضحك كالغزال مسبّحا عند الركوع بلثغةِ الفَأْفَاءِ[1]

لا بل إنه يشبه ما يزدان به الكأس من حباب عند المزج بزينة العروس على رأسها فتنكشف عندئذ كل ما ينطوي عليه الضمير من أسرار:

ترى كأسَها عند المزاجِ كأنّما نثرتَ عليها حَلْيَ راسِ عرُوسِ[2]
فتهْتِكُ استارَ الضّميرِ من الحشَا وتبدي من الأسرار كل حَبيسِ

ودائماً للكأس في كف الساقي إشعاع الكوكب:

ترى الكأسَ في كف المديرِ كأنها على راحتيه كوكب الدّبرَانِ[3]

وهذا مشهد خمري حافل فقد أدركت مغني مجلس الخمر الكأس الأخرى قبل أن يفرغ من الأولى فأشار إلى الساقي أن يسقيه باليمنى وهكذا تجمع في كفيه كأسان كانتا كالسراجين المشعين في محراب قس تهيأ للصلاة والتلاوة:

حَثَثْنا مُغَنِّينا على شُرب كأسِه فتدركهُ كأسٌ وفي كَفّه أُخْرى[4]
فأمسكَ ما في كفِّه بشمالِهِ وَأَوْمأَ إلى السّاقي لِيَسْقِيه باليُمْنى
فشبهتُ كأسيهِ بكفَّيهِ إذْ بدَا سَراجَيْنِ في مِحْرابِ قس إذا صلّى

ولأن معظم كؤوس أبي نواس زجاجية فإنها تحيل الليل إلى نهار لشدة لمعانها وإشعاعها:

ترى الكأسَ تسْعَى بيننا فكأنّما تَرَدّدُ فيما بيْننا بالأصائِلِ[5]

وأما الفضية منها فلشدة لمعانها تبدو الخمر فيها كالسراجِ الوهاج فمن شرب منها الخمر فكأنه يشرب سراجاً:

وُعقارٍ كأنما نتعَاطَى في كؤوسِ الُّلجَيْنِ منها سِرَاجَا[6]

وهي كاسات أشبه بسرج القس في محرابه:

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧٠٤.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٩.
(٣) الدبران: منزل للقمر.
(٤) ديوان أبي نواس ص١١٩ ط. الغزالي.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٨٥.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٦٣.

كأنَّ كاساتِنا والّليلُ مُعْتكِرٌ سُرْجٌ توقّدُ في محرابِ شَمّاس[1]

ولبياض هذه الكؤوس الزجاجية تبدو إذا سكبت فيها الخمر كالعرائس وهي تختال في أزيائها الحمر حتى إذا مزجت الخمر بالماء جللتها صنوف الزينة والجمال من البدور وحب المرجان فتبدو الخمر في الكأس كأنها سماء تسطع فيها نجوم متآلفة وأنيسها البدر قائم بينها:

كأن الزجاجَ البيضَ منها عرائسٌ عليهنَّ بين الشُّربِ أرديةٌ حُمْرُ[2]
إذا قُهِرَتْ بالماء راق شعاعُها عيونَ النّدامى واستمرَّ بها الأمرُ
وضاءَ من الحَلْى المُضَاعَفِ فوقَها بدورٌ ومرجانٌ تألّفهُ الشَّذْرُ
كأن نجومَ الّليل فيها رواكدٌ أقمن على التأليفِ آنِسُها البَدْرُ

وقد بلغ من شدة عناية أبي نواس بالكؤوس أنه لا يكاد يترك منها جانباً إلاّ وقف عنده ومنها نسبتها وها هو يطلب إلى ساقيه أو خمّاره أن يصون خمره في آنية ذهبية المعدن مخروطية الشكل فارسية الصنع أو مما تخير كسرى لصيانة خمره:

فصنها عن الماء القَراحِ وهَاتِها فأنّكَ إن لم تسقني متُّ دُونَها[3]
بآنيةٍ مخْروطَةٍ من زَبرْجَدٍ تَخَيَّرَ كسرى خَرْطَها ليصُونَها

وهكذا كانت كؤوس أبي نواس الخمرية بما تحمل من صور وتماثيل فارسية ونصرانية تنم عن حياة مادية غنية بالملاهي والمطاعم والمشارب:

فاستوسق الشُّربُ للندامى وأجراها علينا اللُّجينُ والغَرَبُ[4]
أقولُ لمّا تحاكَيا شَبَهاً أيُّهما للتشابُهِ الذهبُ
هما سواءٌ وفرقٌ بَيْنَهُما إنهما جامدٌ ومُنْسَكِبُ
مُلْسٌ وأمثالُها محفَّرَةٌ صُوِّرَ فيها القسوسُ والصُّلبُ
يتلون أنجيلَهم وفوقهمُ سماءُ خمرٍ نجومُها الحَبَبُ

أغرم أبو نواس في إبراز صور كسرى على كؤوس خمره منوهاً بزينتها وتصاويرها الفارسية كقوله في مقطوعته الشهيرة:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٥٩.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠٠.
(٣) ديوان أبي نواس ص١٣٨ ط. الغزالي.
(٤) ديوان أبي نواس ص٥ ط. الغزالي.

تدار علينا الراح في عَسْجديّةٍ حبتْها بألوانِ التّصاويرِ فَارِسُ[1]
قرارتها كسرى وفي جنباتِها مهاً تدّريها بالقِسِيِّ الفوَارِسُ
فللخمر ما زُرّتْ عليهِ جيُوبُها وللماء ما دارتْ عليهِ القلانسُ

الخمر بكل أجوائها وأدواتها أقوى دليل على شعوبية أبي نواس حضارية كانت أم عنصرية وهكذا صور كسرى في قرارة الكأس أو قاعها وهو تحف به عساكره وقد أشرعوا قسيهم من خلف الغزلان التي زينت صورها جنبات الكأس لاصطيادها وحين دارت هذه الكؤوس المزخرفة بالخمر الممزوجة بالماء على الشرب كان حد الخمر إلى موضع الجيوب من تلك الصور والماء إلى مواضع الرؤوس المغطاة بالقلانس.

ومرة أخرى يحتل كسرى قاعدة الكأس الذي يسميه أبو نواس بلفظه الفارسي «الطرجهار» وأما الجند فجميعهم تحت موضع ركاب كسرى، وخيولهم دون جواد كسرى وقد تسلحوا بالأعمدة وتدرعوا بالأقبية الفارسية القصار:

فحلَّ بزَالها في قعرِ كأسٍ محفّرةِ الجوانبِ والقرارِ[2]
مُصوّرةٍ بصورةِ جُنْدِ كِسْرى وكسرى في قرارِ الطَّرْجهَارِ
وجُلُّ الجندِ تحت ركابِ كِسْرى بأعمدةٍ وأقْبيةٍ قصَارِ

بل إن نزعته الشعوبية لتتضح لنا حين يقرن تصاويره الفارسية بالأزراء بالوقوف بالأطلال من ذلك إشادته بكؤوسه المصنوعة من الذهب والمنقوشة بتصاوير بني بابك محيقة بها كأنها النطاق حتى إذا ملئت تلك الكؤوس بالخمور بدت التصاوير وكأنها كتائب قد احتوتها لجة الماء فأغرقتها. ويختم هذا الإعجاب بما لفارس من مآثر وفنون بالازراء على شعراء العرب في نعتهم الرسوم الدارسة والأطلال البالية:

نُزَوِّجُ الخمرَ من الماءِ في طاساتِ تِبْرٍ خمُرها يفهَقُ[3]
مُنَطّقاتٍ بتصاويرَ ولا تسمعُ للدَّاعي ولا تنطِقُ
على تماثيلِ بني بابكٍ مُحْتَفِرٌ ما بينهم خَنْدَقُ
كأنهم والخمر من فوقِهِمْ كتائبٌ في لجَّةٍ تَغْرقُ

(١) ديوان أبي نواس ص٣٧.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٧.
(٣) نفسه ص١٥٧ ط. الغزالي.

فالـنـعـتُ ذا لانـعْـتُ دارٍ خلَتْ يهـيمُ في أطـلالِـهـا أحْـمَـقُ

القصة في خمريات أبي نواس:

عرف الشعر العربي السرد القصصي والأسلوب الحواري منذ أقدم عصوره، ففي أشعار امرىء القيس وعنترة والمنخل اليشكري وغيرهم من شعراء الجاهلية نماذج كثيرة من السرد والحوار. أما الأعشى فيعتبر زعيم القصة الخمرية في العصر الجاهلي، بل قبل عصر أبي نواس كله بلا منازع، وإذا كان الأعشى هو واضع أصول القصة الخمرية ومرسى قواعدها فإن أبا نواس هو الباعث لها من الركود الذي أصابها طيلة العصر الإسلامي والنافخ فيها نسمة الحياة من جديد كما لم يفعل أي شاعر آخر من قبل.

غير أن قصة الأعشى الخمرية كانت جزءاً من جملة فنون اشتملت عليها القصيدة التي غالباً ما كانت مديحاً في حين استقلت القصة الخمرية النواسية استقلال قصيدته الخمرية، بل إن قصصه الخمرية تعتبر قصائد خمرية من الطراز الرفيع لاحتوائها إلى جانب السرد والحوار على كثير من المعاني والموضوعات التي اشتملت عليها خمرياته الأخرى. إن قصص أبي نواس الخمرية تعج بالشخصيات التي يجمعها مع أبي نواس المشاركة الوجدانية من مثل: الساقي والخمّار والنديم والمطرب والجارية والسمار... وفي تلك القصص كان أبو نواس يشكل دائماً الطرف الأول في الحوار والقطب المحرك للسرد القصصي وهكذا اتصفت خمرياته القصصية بالحيوية والإثارة. على أن السرد أو الحوار شائع في كثير من خمرياته حتى التي منها لا تدخل تحت عداد القصص الخمرية من ذلك خمريته المشهورة:

ذكـر الـصـبـوح بسُحـرةٍ فارتـاحَـا وأمـلَّه ديكُ الـصـبـاح صياحَـا[1]

وفيها يدور حوار بين أبي نواس وبين أحد ندمانه أو الخمّار الذي ولج عليه حانته ليلاً ويطلب إليه النديم أن يبحث له عن المصباح، فيجيبه أبو نواس بأن يتمهل ففي ضوء الخمر غنى عن ضوئه:

وَخَـدينٍ لذّاتٍ مُعَـلَّلِ صاحِـبٍ يقـتـاتُ منـه فُكَـاهـةً ومُـزَاحَـا
نَبّـهـتُـه والـليلُ ملتـبِسٌ به وأزَحـتُ عنـه حُـثـاثـهُ فانـزاحَـا
قال: ابْـغِـنِي المصبـاحَ: قلتُ له اتّئِـدْ حَسْبي وحَسْبُـك ضوءُهـا مصبَـاحَـا

وفي خمرية أخرى قصيرة نراه يحاور خمّاراً مساوماً إياه بأسلوب طريف حتى ينتهي إلى معاقرة

---

(١) ديوان أبي نواس ص١ ط. الغزالي.

الخمر والسُّكْر. . ثم ما بعد السُّكْر من «فساد بفساد»:

لمـا وردنـاهـا نُلِمُّ بشـيخـهـا ... عِلْجٌ يحـدِّثُ عن مصـانـعِ عادِ[1]

قلنـا: «الـسـلامُ عليك»قـال عليكـمُ ... منّـي سلامُ تحـيّةٍ ووِدادِ

ما رمـتـمُ؟ قلنـا «الـمـدامَ» فقـال قد ... وُفِّـقـتـمُ - يا إخـوتـي - لرشـادِ

عنـدي مُدامٌ قد تقـادَم عهْـدُهَـا ... عُصِـرَتْ ولـم يشـعـر بهـا اجْـدَادِي

فأكـيلُ؟ قلنـا «بـعـد خُبْـرِ أنّـنـا ... لا نشْـتـري سمـكـاً ببـطنِ الـوَادِي

جئْـنَـا بهـا! فأتـى بكـأسٍ أشْـرقـتْ ... منـهـا الـدُّجَـى وأضـاء كلُّ سوَادِ

فأدارهـا عدداً ثلاثـاً فانـثـنَـتْ ... منـا الـنـفـوسُ ولـيس منـهـا صادِ

حتـى إذا أخـذتْ بوجـنـةِ صاحـبـي ... وفـؤادِهِ وَبـوَجْـنـتِـي وفـؤادِي

لم يرضَ ابـلـيسُ الـظريفُ فعـالَـنـا ... حتـى أعـانَ فسـادَنـا بفـسـادِ!

وغير هذا ليس بالقليل في خمريات أبي نواس أما عن قصصه الخمرية فلا بد من القول بادىء ذي بدء بأنه ليس من المتوقع أن نصادف قصة فنية بشروطها المعهودة من بداية ونهاية، وعقدة تدور عليها الوقائع والحوادث ثم لتنتهي بحل لها، لسبب بسيط هو أن الغاية التي كان يرمي إليها أبو نواس من وراء قصصه الخمرية هي تصوير مجالسه الخمرية بأكبر قدر من التأثير وهنا نحب أن نتساءل، هل كان أبو نواس سيلجأ إلى الأسلوب القصصي في خمرياته لو لم يكن مسبوقاً إلى هذا الفن؟ الجواب عندي نعم، لكون أبي نواس إلى جانب استيعابه للتراث الشعري نظم في كل أبواب الشعر وفنونه فديوانه من هذه الجهة ربما كان أشمل ديوان شعر في زمانه هذا إلى غنى حياة أبي نواس الخمرية وحيويتها واتساع تجاربها وعمقها وما كانت تعج به من شخصيات ومواقف عديدة ومتباينة مما يجعلنا نؤكد أنه كان سيهتدي إلى الفن القصصي لأنه أكثر ملاءمة وشمولاً لمثل تلك الأجواء الخمرية الحافلة. . !!

هذا، وسنتوقف عند نموذجين من خمرياته ربما كانا أكثر قصصه الخمرية احتفاء بالعناصر القصصية وأغناها بالموضوعات الخمرية.

أما النموذج الأول فمغامرة ليليّة إلى إحدى الحانات مع جماعة من الأصدقاء يسميهم أبو نواس «بفتيان صدق» وتقع هذه المغامرة في أربعة فصول أو أربع مراحل بداية من ولوج الحانة إلى غاية

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧٨ ط. الغزالي.

السكر ومواقعة الخمار. . . !

أما المرحلة الأولى فتبدأ بطروق إحدى الحانات ليلاً على خمار «أحور ذمي» فيهب الخمار مذعوراً فيطمئنه أبو نواس بأنهم طلاب خمر فيزول خوف الخمار ويسرع إلى الباب ليفتحه وهو يطل عليهم بوجه كأنه البدر حتى إذا دخلوا تقدمهم مختالاً بجماله وهو يجر أذياله بردفه الثقيل وخصره النحيل.

وأحـورَ ذمـيٍّ طرقـتُ فنـاءَه ... بفـتـيانِ صدْقٍ ما ترى منـهـمُ نُكْـرا[1]
فلمـا قرعْـنـا بابَـه هبَّ خائـفـاً ... وبـادر نحـو الـبـاب ممـتـلِئـاً ذُعْـرَا
وقـال: «مَـنْ الـطراق ليلاً فنـاءَنـا؟» ... فقـلتُ له: «افـتـحْ فتـيةٌ طلبُـوا خَمْـرا
فأطـلـقَ عن أبـوابـهِ غير هائـب ... وَأَطْـلـعَ من ازرارهِ قمـراً بَدْرا
ومـرَّ أمـامَ الـقـومِ يسـحـبُ ذيلَهُ ... يجـاذِبُ منـه الـرّدفُ في مشيهِ الخَصْـرا

أما المرحلة الثانية فتبدأ بسؤال أبي نواس الخمّار عن اسمه فيجيبه بأن أباه سمّاه «سابا» ولقبه «شمرا» عندئذ يستخف أبا نواس وصحبه الطرب لحلاوة الاسم ووقع اللقب فيطلبون خمراً معتقة فيجيبهم الخمّار بأن خمره سلخت من الزمان عشر سنين وهي محتجبة في دنها، وعندئذ تدور مساومة ما بين أبي نواس وصحبه وبين الخمّار وتنتهي بأن ينقد أبو نواس الخمّار خمسة دنانير ذهبية مهراً للخمر فيقوم الخمّار لإحضار الخمر ووجهه يطفح بالبشر:

فقـلت له ما الاسـم حُيِّيتَ قال لي ... دعـانـي أبـي سابـا ولـقـبـني شَمْـرا
فكـدنـا جمـيعـاً من حلاوة لفـظهِ ... نُجَـنُّ ولـم نسـطعْ لمـنـطقـهِ صَبْـرا
فقـلت له جئـنـاكَ نبـتـاعُ قهـوةً ... معـتّـقـةً قد أنـفـدتْ قِدَمـاً دَهْـرا
فقـال أربـعُـوا عنـدِي الـتي تطلبُـونَهـا ... قد احـتـجـبـت في خِدْرهـا حِقبـاً عشْـرَا
فقـلت فمـاذا مهْـرُهـا قال مهـرُهـا ... إليـك فَسُـقْـنَـا نحـوَه خمسـةً صُفْـرا
فقـلت له خُذْهـا وهـاتِ نُعَـاطِـهَـا ... فقـام إلـيهـا قد تمَـلّى بنـا بشـرا

وفي المرحلة الثالثة يحضر الخمّار زق خمره «المسند» الذي كانت فيه الخمر مصونة كالقلب المصون في الصدر حتى إذا طعنه الخمّار بأشفاه «بمثقبه» تدفقت الخمر متلألئة مثل تلألؤ ضوء البدر حتى إذا صب منها في الكأس فاح منها ريح كريح العطر:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٢٤ ط. الغزالي.

فشكَّ بأشفاءٍ له بُطَن مُسْنَدٍ ... فسالتْ تحاكي في تَلألُؤهَا البَدْرَا
وجاءَ بها واللَّيْلُ مُلْقٍ سُدُولَه ... مُدِلاًّ بأنْ وافَى محيطاً بها خُبْرا
ربيبةُ خِدْرٍ راضَها الخِدْرُ أعصُرا ... فكانت له قلْباً وكان لها صَدْرا
إذا أخذتْها الكأسُ كادت بريحِها ... تخالُ بها عِطْرا وما إن ترى عطْرَا

أما المرحلة الرابعة والأخيرة ففيها تقع معاقرة الخمر ومواقعة الخمّار مع الإشادة بجماله والتنويه بمفاتنه بأسلوب صريح لا حاجة بنا للوقوف عنده:

وما زالَ يسقينا ويشربُ دائباً ... إلى أن تغنّى حين مالت به سُكْرا
«فما ظبيةٌ ترْعَى مساقطَ روضةٍ ... كسَا الواكفُ الغَادِي لها ورقاً خُضْرا
بأحسنَ منه منظراً زانَ مخْبراً ... بل الظَّبيُ منه شابَه الجيدَ والنَّحْرا»
فيا حُسنه لحْناً بدَا من لسانِهِ ... ويا حُسنَه لحْظاً ويا حسنه ثَغْرَا
ونام وما يدري أأرضٌ وسَادُهُ ... توسّدَ سُكْراً أم وسَاداً رأى جَهْرا
فقُمنَا إليه حين نامَ وأُرْعِدَت ... فرائصُهَ تجْري بميدانِهِ ضَمْرا
فلما رأى أن ليس عن ذاكَ مخْلَصٌ ... ووافقه ليِّنٌ أجادَ لنا العَصْرا

وبالتدقيق في هذا النموذج من القصة الخمرية نلاحظ خلوها من معنى القصة بمفهومها الفني فقد غلب عليها سرد الوقائع بداية من الرحلة حتى غاية السُّكْر، ولذلك شاعت ألفاظ أو أفعال الحكاية والسرد في معظم مطالع الأبيات، مثل: فلما قرعنا الباب.. فأطلق عن أبوابه.. ومرامام القوم.. فشك بأشفاء.. وجاء بها والليل.. وما زال يسقينا... إلخ، وألفاظ القول وما اشتق منه في مجال الحوار مثل: فقلت له ما الاسم..، فقلت له جئناك...، فقال آربعوا عندي.. إلخ.

هذا مع غلبة صيغة المتكلم مما يجعل أبا نواس هو زعيم «فتيان الصدق» الحاكي عن أفعالهم والمصور لأحاسيسهم وانفعالاتهم وهكذا كما كان هو باني القصيدة كان أيضاً المتحدث عن أحداثها ومحدثيها...!

أما النموذج الثاني الذي اخترناه من قصص أبي نواس الخمرية فقصيدة تعتبر من عيون خمرياته حتى سماها بعض الدارسين بالتائية الكبرى[1] وتقع القصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتاً وهي

(١) ألحان الحان لعبدالرحمن صدقي ص١٩.

أوفى أداة فنية وأكمل أبعاداً وأدنى إلى مفهوم القصة من القصة الأولى. وقد صدرها أبو نواس بمقدمة يمتدح فيها أخوانه «فتية كمصابيح الدجى» مرتفعاً بهم إلى مستوى الأبطال مع صباحة الوجوه وكرم النجار والشجاعة والسؤدد والمروءة والأصالة في النسب والقدرة على التحكم بمصائرهم في إخضاعهم باللهو المتصل، الدهر لسطوتهم. والدهر هنا بمضمونه لا بزمانه، رمز لجملة ما يقهر الإنسان على إرادته ويخليه من سعادته وهو رمز لكل ما هو نقيض للهو من دين وأخلاق وواجبات، هؤلاء هم ندمان أبي نواس على خمر طيبة معتقة مجلوبة من تكريت أدركوها عند إحدى صواحب الحوانيت والليل متلاطم الأمواج بالظلام يضل به الملاح:

وفتيةٍ كمصابيحِ الدجّا غُرَرٍ ... شُمِّ الأنوفِ من الصيِّدِ المصَاليتِ[1]
صالُوا على الدَّهْرِ باللّهو الذي وصلُوا ... فليس حبلهمُ منه بمَبْتُوتِ
دار الزمانُ بأفلاكِ السعودِ لهم ... وعاجَ يحنُو عليهم عاطفَ اللّيتِ
نادمتُهم قرقَفَ الإسفِنْطِ صافيةً ... مشمولة سُبِيَتْ من خمر تكْريتِ
من اللّواتي خطبْناها على عجَلٍ ... لما عجِجْنا بربّاتِ الحوانيتِ
في فيلقٍ للدُّجَا كالليمِّ ملتطمٍ ... طامٍ يحارُ به من هَوْلِه النُّوتي

ثم تبدأ القصة الفعلية بحوار مع الخمّارة الشمطاء الكافرة المتظاهرة بالتوقر والتي تعرف أبا نواس وصحبه بجودهم المفرط لتنعم باليسار وتغنم من بذلهم كما غنم داوود من أسلاب جالوت وإلاّ - يداعبها - فستموت إن هم انصرفوا عنها. وهكذا أبقتهم العجوز الشمطاء عندها حتى الصباح.

إذا بكافرةٍ شمطاءَ قد برزَتْ ... في زيِّ مختَشِعٍ لله زمّيتِ
قالتْ مَنْ القومُ قلنا: من عَرْفتِهمُ ... من كل سمْحٍ بفرط الجودِ منعُوتِ
حلّوا بدارك مجتازينَ فاغتَنِمي ... بذلَ الكرامِ وقولي كيفما شِيتِ
فقد ظَفِرتِ بصفوِ العيشِ عانمةً ... كغُنْمِ داودَ من أسلابِ جالُوتِ
فاحَيْي بريحهمُ في ظلِ مكرُمةٍ ... حتى إذا ارتحَلُوا عن داركم مُوتي
قالت فعندي الذي تبغُون فانتَظِرُوا ... عند الصّباح فقلْنا بَلْ بهَا ايتي

ثم يأخذ أبو نواس في الحديث عن الخمر، لونها وقدمها. وهو يشبه الخمر بإشعاعها كالوهج

---

(١) ديوان أبي نواس ص٣٨ ط. الغزالي.

المتقد يرمي بالشرر كأنه اليواقيت لشدة ضيائه وبريقه كما رجمت الملائكة المردة من الشياطين بالنجوم.

وفي قدمها ينسبها إلى عهد طالوت أحد ملوك بني إسرائيل حين ظلت محجوبة عن الأعين حتى أصابها الكبر وحل بها العنس وهي في دنها مدفونة في بطن تابوت. ويتمادى أبو نواس إلى الإشادة بكرم معدنها وطيب نكهتها وما يتولد عن المزج من أشكال وهو وصف وصفه بعض الدارسين[1] بأنه تصوير بصري أو حرفي، وصف يتساوى مع الظاهر:

هي الصباحُ تحيل الليلَ صفوتُها ... إذا رمتْ بشرارٍ كاليواقيتِ
رمْيَ الملائكة الرُّصَّادِ إذ رجمتْ ... في الليلِ بالنّجمِ مُرّادَ العفاريتِ
فأقبلتْ كضياءِ الشمسِ نازعةً ... في الكأسِ من بَيْنِ دامِي الخصرِ منكُوتِ
قلنا لها: كم لهافي الدّن مذحُجِبَتْ ... قالت قد اتُّخِذَتْ من عهدِ طَالُوتِ
كانت مُخَبّأةً في الدنِ قد عنَسَتْ ... في الأرضِ مدفونةً في بطن تابُوتِ
فقد أُتيتُم بهَا من كُنْه مَعْدنها ... فحاذرُوا أخذَها في الكأسِ بالقوتِ
تُهدِي إلى الشَّرب طيباً عند نكهَتِها ... كنفْحِ مسكٍ فتيقِ الفار مفْتُوتِ
كأنها بِزُلَالِ المُزْن إذ مُزِجَتْ ... شبَاكُ درٍّ على ديباجِ ياقوتِ

ثم يتطرق إلى وصف مجلس الخمر الذي التأم في حدائق ملففة وفيه تواجهنا شخصية الساقي على نقيض من شخصية الخمّارة الشمطاء وهو ساق باهر الجمال كالقمر، أحور العين كأنما اشتق منه هاروت سحره، كما تواجهنا شخصية المغني الذي يشارك الساقي في جماله حتى أنه شد إليه أنظار الندماء وهم مأخذون بحسنه وكأنهم في تيه ويدل تواجد الساقي والمغني مع تباين دور كل منهما عن دور الأخر، إن المجلس الخمري قد توافرت له كل أسباب المتعة والانبساط. وقد شاركت الطبيعة التي كانت الإطار العام الجميل لكل عناصر المجلس بنصيبها في هذا المجلس الحافل. ويبدو من الوصف للحديقة أنها عباسية الانتماء بحضارتها العمرانية:

يديرها قمرٌ في طرفه حورٌ ... كأنما اشتُقَّ منه سحرُ هارُوتِ
وعندنا ضَارِبٌ يشدو فيُطربُنا ... يا دارَ هندٍ بذاتِ الجزْع حُيِّيتِ
إليه الحاظُنا تُثْنى اعنَّتُها ... فلو ترانا إليه كالمباهيتِ

---

(١) فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب ص٢٤٣، والقصيدة العباسية «قضايا واتجاهات» ص١٧٣.

منـن أهـل هيتٍ سَخَيٌ الـجـرم ذي أدبٍ ... له أقـول مزاحـاً هاتِ ياهـيتِـي
فينـبَـري بفـصـيح الـلحـن عن نغـمٍ ... مُثَّـقـفـاتٍ فصـيحـاتٍ بتـثـبـيتِ
حتـى إذا فلكُ الأوتـارِ دار بنَـا ... مع الـطَّبـول ظَلَلْنـا كالـسـبـابـيتِ
فُزنـا بهـا في حَديقـاتٍ ملفَّـفَـةٍ ... بالـزَّنْـدِ والـطَّلح والـرمـان والـتـوتِ
تُلهـيكَ أطـيارُهـا عن كُلِّ ملهـيةٍ ... إذا ترنَّـم في ترجـيعِ تَصْـويتِ
لم يَثْـنِـنـي الـلهـو عن غِشْـيان مَوْردهَـا ... ولـم أكـنْ عن دوَاعـيهـا بِصـمِّـيتِ

أما ختام القصيدة فقد جاء غريباً في بابه وذلك حين أخذ أبو نواس يندب سوء حظه عند الغواني بعد أن علته كبرة نادماً على تفريطه في حق نفسه وغفلته عن النهوض بواجب الصلاة في مواعيدها الموقوتة راجياً عفو الله كما عفا عن يونس بن متى صاحب الحوت:

حتـى إذا الـشـيبُ فاجَـانـي بطَلْعـتـهِ ... أقـبـحْ بطلعـةِ شيب غيرِ مبـخُـوتِ
عنـد الـغـوانـي إذا أبـصَـرْنَ طلعـتَـهُ ... آذنَّ بالـصَّـرْمِ من ودّ وتـشـتـيتِ
فقـد ندمـتُ على ما كان من خَطَلٍ ... ومـن إضَـاعَـةِ مكـتـوبِ الـمـواقـيتِ
أدعـوكَ سبـحـانـك الّـلهُـمّ فاعفُ كمـا ... عفـوتَ ياذَا الـعُـلى عن صاحـبِ الحُـوتِ

بعد عرضنا لهذه القصة الخمرية نستطيع أن نتوقف عند جملة من الملاحظات أولاها أن هذه القصة أغنى من سابقتها بالفن القصصي بالرغم من مقدمتها التمهيدية التي لم تكن ضرورية والخاتمة التي جاءت على غير النهج العام للقصيدة أو القصة. وفي الوقت الذي غلب ضمير الجماعة من متكلمين أو غائبين أو مخاطبين على ركني السرد والحوار قل قلة واضحة ورود ضمير المفرد في صيغة الغائب أو المتكلم اللهم إلاّ في ختام القصيدة حين اتجه بها أبو نواس إلى ندب سوء حظه.

أما الحبكة القصصية فقد كانت واضحة رغم إضعاف المقدمة والخاتمة للتواصل المستمر بين البداية والنهاية ومع هذا فقد ظل الشاعر يتنقل بنا من صورة إلى أُخرى في تناسق وترابط في الحدود والهياكل المألوفة لمجالس الخمر، كذلك أعطى الشاعر لكل عنصر من عناصر المجلس دوره وأول هذه العناصر الخمر نفسها. وكان مشهد كل من الساقي والمطرب متواصلين على الطريقة النواسية، كل هذا من خلال لغة غير معقدة وتعابير خالية من الغموض أو الإبهام أو الألغاز. كذلك تجلت براعة الشاعر في حسن استغلاله للقصص الديني وهو عنصر جديد أثرى القصيدة والقصة بالمعاني

والصور التاريخية وقد بلغت شدة الترابط بين أبيات المشهد الواحد من مشاهد القصيدة المتعددة درجة من الكمال لا نستطيع فيها أن نقدم أو نؤخر بيتاً على آخر دون خلل واضح في نظامها.

وأخيراً لا آخراً هذا التكافؤ بين عناصر القصة من قينة وخمّارة وساق ومطرب فيما كان يضطلع كل واحد منهم من دور، ولولا تفرد الشاعر بدور الاستغفار والشكوى في ختام القصيدة لكان أحد عناصرها الذي يكافىء دوره دور أي عنصر من عناصرها.

على أن الحقيقة، أن تفوق أبي نواس في فن الخمر وتفرده فيه لا يظهران لنا إلا عند مقارنة خمرياته بخمريات معاصريه في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الجزء، وعندئذ سنرى أن أبا نواس ما يزال حتى اليوم شاعر الخمر الأول في أدبنا العربي، وذلك لما ابتكر من مستجدات توج بها محاولاته الجادة من أجل تطوير فنونه الشعرية سواء ما كان منها مسبوقاً إليه أو ما كان مبتدعاً فيه، مما جعله يقف على رأس المجددين في عصره بدون منازع، فنحن نلمح في كل جانب من جوانب شعره، خمره وغير خمره، شواهد تجديدية، وظواهر مستحدثة يستطيع دارس أبي نواس أن يقع عليها من دون أن يلجأ إلى المحاكاة أو المقارنة. فالشواهد الماثلة والظواهر البينة أدلّ على ما نقول من أية قرينة أخرى.